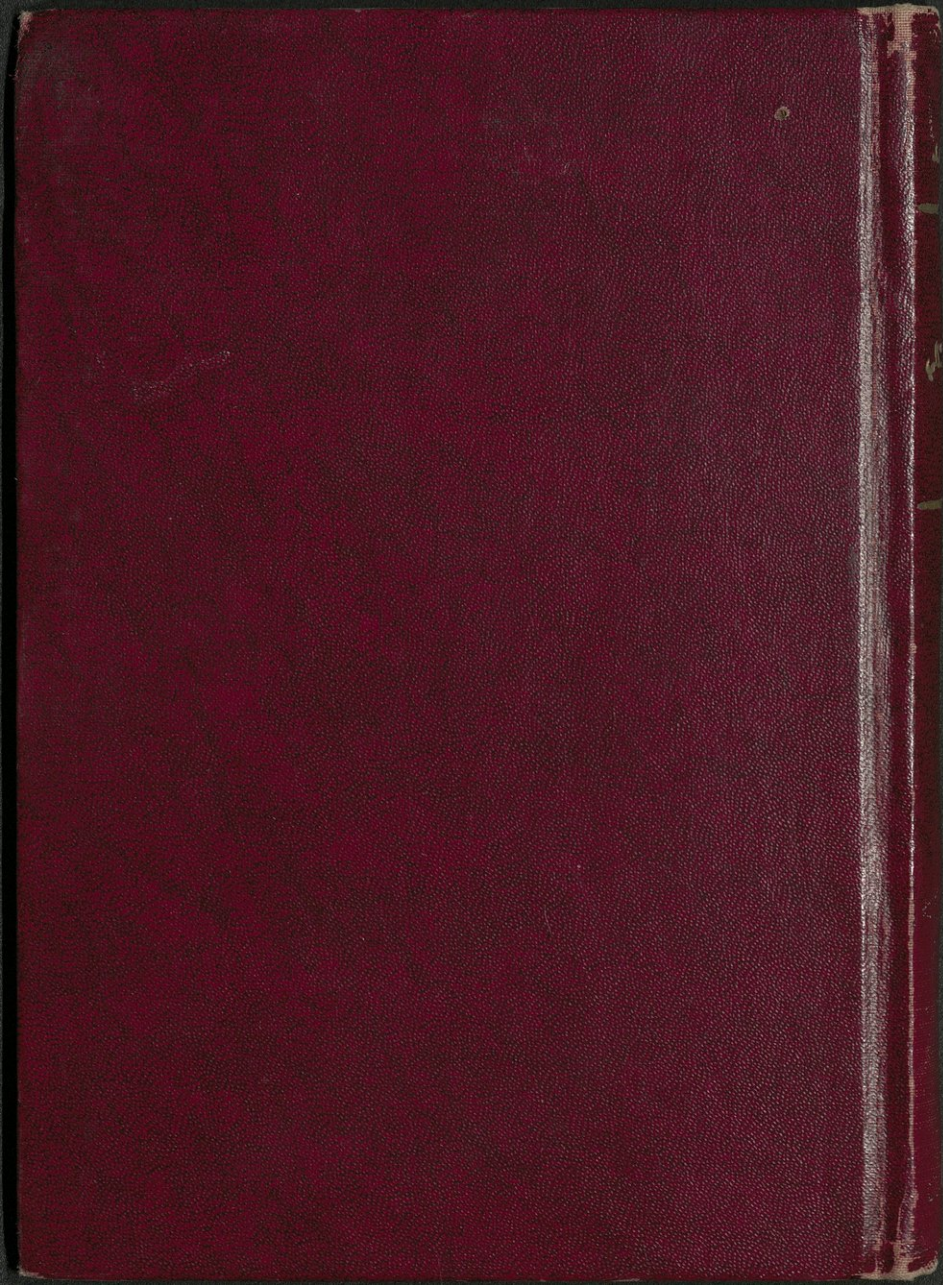
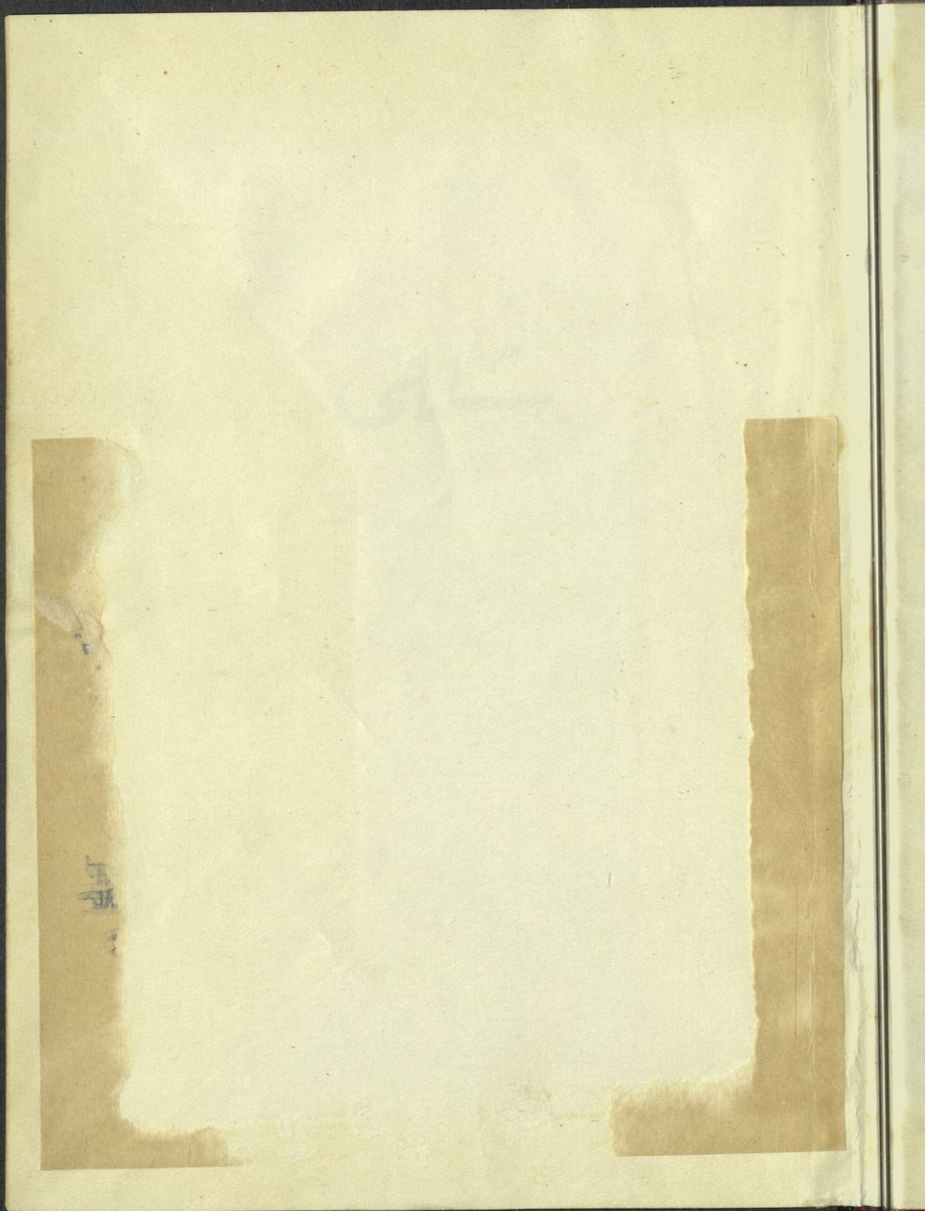
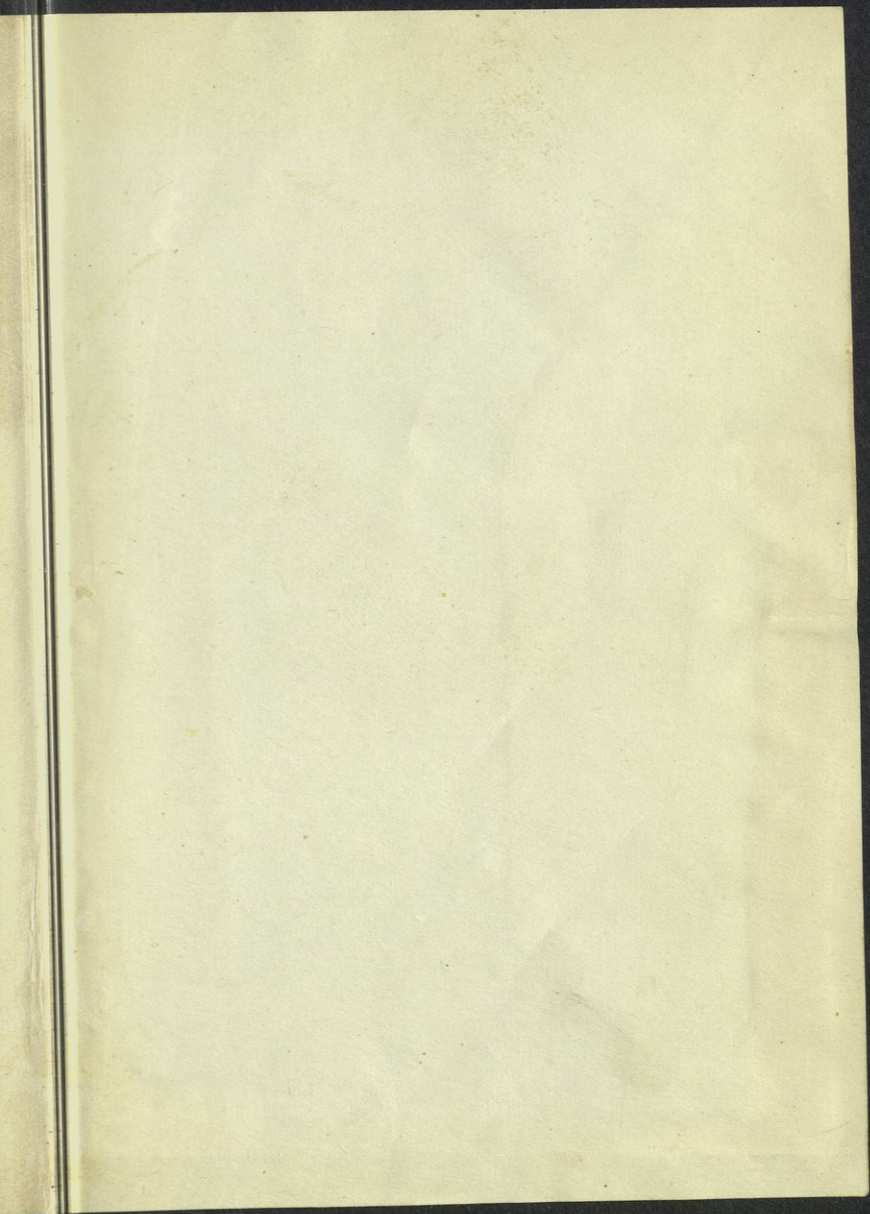




AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

تجليد كتب
صالح الدقر





شلاى

828
S 545 Ym4 A
C.1

أحمد الصاوي محمد



سلي

١٢٨

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

١٩٥٣
١٥
أقرأ ١٢٨ - أول يولييه ١٩٥٣



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

كان « الدكتور كيت » ناظر كلية « أيتون » الحديد رجلا قصير القامة ، شديد المراس ، يرى أن التأديب « بالفلقة » درس جميل .. وقد جلد أغلب وزراء البلاد ، وأساقفتها ، وقوادها ! كانت الثورة الفرنسية قد برهنت على أخطار الاندفاع في الحريات أو الانزلاق في الاستهتار إذا ما أصابت هذه الآفات الطبقات الحاكمة . ورأت انجلترا ، المحافظة ، أنها بمحاربتها نابليون إنما تحارب الإباحة وتخدمها في مهدها . فأصرت على أن تخرج لها مدارسها العامة جيلا عاقلا مصانعا ، فاتخذت محيطها لكبح جماح كل نزعة جمهورية محتملة في شباب أيتون الأرستقراطيين

وكانت العلوم في أيتون غير إلزامية ، ولذلك أهملت . وكان الرقص إجبارياً ! ... أما من الناحية الدينية فكان الدكتور كيت يرى الشك جريمة ، ومن العبث النقاش فيه وكانت تسود علاقات الطلاب بعضهم ببعض عادات تكاد تكون وحشية . فإن الصغار منهم كانوا للكبار عبيداً ! .. وكان كل « عبد » يرتب سرير « سيده » ، ويحمل له من

«الطملبة» ما يلزمه من الماء كل صباح ، وينظف ملابسه ،
ويمسح حذائه ! .. وكان كل عصيان يعاقب صاحبه بلون
من التعذيب يناسبه !

وكان للملاكمة الصدر الأول ، لمكانتها من الدفاع عن
النفس . حدث يوماً أن خلف شوط عنيف منها صبيّاً صريعاً
ملقى على الأرض ميتاً . فجاء الدكتور كيت فشاهد الجثة وقال :
« هذا يؤسف له ، ولكنى حريص قبل كل شيء على أن يكيل
تلميذ « أيتون » لمن يهاجمه الصاع صاعين » ! ..

غير أن بعض النفوس الحساسة ، وقليلاً ما كانت ، اشتد
عذابها ، وطال ألمها . . ومن هذه النفوس كانت نفس الفتى
« پرسی شلى » نجل أحد كبار الملاك الأغنياء فى مقاطعة
سوسكس ، وحفيد البارون السير بيسيش شلى . فقد أظهر قلقاً
لم يؤلف فيمن كان من طبقته ، وأبدى نزعة لا تصدق فى
تطبيق « قواعد اللعب »

وكان هذا الفتى جميلاً ، أزرق العينين ، أشقر الشعر نائره ،
ناعم البشرة كالطفل . . .

عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة رأى فيه قباطنة السنة
السادسة : جسماً نحيلاً ، ووجهاً ملائكياً ، وهيئة أقرب ما
تكون إلى الفتيات . فتصوروه حياً ، لا يحتاج إلى أن يفرضوا

عليه إرادتهم قسراً . . بيد أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا فيه مقاومة
جاحدة وإرادة لا ترضخ . . وكانت عيناه النجلوان ، الحلمتان
في ساعات الصفاء ، تبرقان تحت تأثير الحماسة أو السخط
ببريق وحشى . ويصبح صوته ، الرزين الرخيم عادة ، جمهورياً
متحشرجاً . . كان متمرداً يصدمهم ويصدهم عنه كل شيء فيه :
حبه للكتب ، واحتقاره للعب ، وشعره المرسل في الهواء ،
وقميصه المفتوح على نحره الأثنوى !

حكم شلى ، من أول يوم له في أيتون ، بأن الطغيان الذى
يفرض هذه « العبودية » على الصغار مخالف للكرامة الإنسانية ،
فرفض بنخسونة أن يخدم « سيداً » ، أو يطيع أحداً ، وصار خارجاً
على ذلك القانون !.. فسموه « شلى المجنون » ، وتضافروا على
اضطهاده ، وملاحقته فى كل مكان ، يحاصرونه كما يحاصر الصيادون
الأيل الوحشى ، فيقف وظهره إلى جدار ، ويصرخ صراخاً متواصلاً
يصم الآذان ، وهم يرجونه بكرات مبللة بالوحل ، ويصبح
صائحهم : « شلى » . . فيرد عليه صوت آخر صادعاً :
« شلى . . شلى . . » ! . . وتتجاوب بالصدى الجدران !

ويتراحم عليه « السادة » و « العبيد » ، هذا يجذب ملابسه ،
وذلك يقرصه ، وثالث يخطف الكتاب الذى يضمه إلى إبطه
ويلقيه فى الوحل . وتتجه الأصابع كلها مشيرة إليه ، ويتجدد

الصياح ، وتبلغ به الأزمة مداها ، فتنفجر منه سورة حتى جنونى :
 تلمع عيناه ، وتشحب وجنتاه ، وينتفض بدنه كله ، ويهتز
 اهتزازاً . فإذا انصرفوا عنه عاد إلى كتبه يمسح عنها الطين ،
 وراح بين العشب والماء يطالع أحد كتبه الحبيبة : مؤلفات :
 ديدروه ، وفولتير ، والفيلسوف المادى الملحد دولباك . .
 فقد كان معجباً بهؤلاء الفرنسيين الذين يمتقنهم أساتذته ،
 وكانت آراؤهم ملخصة بين يديه فى مجلد جودوين Godwin :
 « العدل السياسى » ، وهو كتابه المختار ، الذى يبسط له الأمور
 ويبسطها . ولو أن كل الناس فى رأيه قرأوه لعاشت الدنيا فى هناء . .
 لو أنهم أصغوا إلى صوت العقل ، صوت جودوين ، لكان عمل
 ساعتين فى اليوم يكفى لغنائهم ، ولحلّ الحب الحر محل عقود
 الزواج الحمقاء . .

طوى شلى يوماً كتابه وأخذ يفكر فى شقاء البشر . وكانت
 مبانى الكلية الدانية ، من طراز القرون الوسطى ، يتصاعد منها
 لغط أصوات الغباء ، نحو هذه البرية الفيحاء ، المزدهرة
 بالغابات والغدران . ولم يكن حوله ، فى هذا الخلاء الهادئ ،
 وجوه ناضرة ضاحكة مستبشرة . . فانهمرت من عيني الصبي
 الدموع . وضم يديه وقال بصوت مرتفع : « أقسم أن أكون
 عاقلاً ، وعادلاً ، وحرّاً ، ما استطعت إلى ذلك كله سبيلاً . .

أقسم ألا أتواطأ أبداً ، ولا بمجرد الصمت ، مع أهل الأنانية
والجبروت . . أقسم أن أكرس حياتي لعبادة الجمال . . . »

— ٢ —

في خلال العطلة المدرسية يصبح هذا الجامح الآبق ولياً
للعهد . وكان أبوه المستر تيموثي شلى يملك قصر « فيلد بلاس »
في سوسكس ، وهو دار بيضاء ، متينة البناء ، تحيط بها
حديقة وغابات شاسعة . .

هناك وجد شلى أخواته الأربع ، وكلهن فاتنة ، وأخاً صغيراً
عمره ثلاث سنوات ، علمه كيف يصيح : « الشيطان » ،
نكاية بالأتقياء ! . ووجد بنت عمه « هارييت » الحسنة ، التي
كانت تشبهه . . .

أما جده ، السير بسيس شلى ، فكان يسكن القرية . وهو
« چنتلمان » من المدرسة الإنجليزية القديمة ، يباهى بالغنى ،
وكان قد أنفق ثمانين ألفاً من الجنيهات على تشييد قصر فخيم ،
لكنه لم يسكنه لما تتكلفه سكناه من حاشية ! . . وعاش في كوخ
مع خادم واحد ، يلبس كفلاح ، ويقضى يومه في حان القرية
متحدثاً في السياسة مع المسافرين . وشقيقت بالعيش معه كريمته
فهربتا ، وكان ذلك عنده مبرراً لحرمانهما من « الدوطة » ! . .

وكانت هوايته الوحيدة أن يزيد في ضخامة ثروته التي كانت مع ذلك هائلة ، وأن ينقلها إلى آل شلى يتوارثونها خلفاً عن سلف . فوقف الجانب الأكبر منها على حفيده « برسى » ، وحرّم بقية إخوته وأخواته حرماناً تاماً .

وكان تيموثى شلى ، ^{السي}عضو البرلمان ، مثل والده ، طويل القامة ، قوى العضل ، أشقر الشعر ، جميلاً ، وجيهاً . قلبه خير من قلب السير بيسيش ، ولكن دونه مضاعف عزيمة . يتمسك باحترام الدين ، ولكنه يتظاهر بحرية الرأى السياسى والدينى . . أما زوجته ، مسز شلى ، أجمل فتاة فى إقليم « سوسكس » ، فكانت تحب من الرجل أن يكون فارساً مناضلاً ، ولذلك نظرت بعين السخرية إلى ولدها الكبير برسى وهو يقصد الغاب حاملاً تحت إبطه بدل البندقية كتاباً ! . .

بيد أن شلى كان فى أعين أخواته رجلاً أعلى (سوبرمان) ، فلا يكاد يصل من أيتون حتى يزدهم البيت بالضيوف الغربى الشكل ، وتغص الحديقة بالأشباح ، ويتصاعد من جوانبها الهمس وكان شلى يختار لصحبته ، من بين أخواته الصغيرات العزيزات ، أقربهن إليه سنّاً وفكراً : « إليزابيث » . . فهى وبنت عمه الفاتنة « هاريت جروف » كانتا أعز مريداته كان هؤلاء الأحداث الثلاثة يربطهم الشغف بالبحث عن

الحقيقة . وكان شلى يسوق تلميذتيه الجميلتين نحو المقبرة ،
 حيث يرى لأرواح الموتى الهائمة حوّلهم تأثيراً شعرياً ! . . . ويعلق
 بفصاحة على ما يترأى له من شؤون الأرض والسماء ! . . . فمن
 جانب الرذيلة : الحكام الطغاة ، والقساوسة المراءون ،
 والأغنياء الشرهون . . . ومن جانب الفضيلة : الفلاسفة الحكماء ،
 والمساكين ، والأشقياء . . . وقاموسه في هذا كتاب جودوين :
 « العدل السياسى »

غير أنه كثيراً ما كان يتحدث إلى فتاتيه فى الحب :
 — إن شرائع البشر تزعم فرض سننها على عواطفنا الطبيعية !
 فىا للسخف ! فعند ما تلاحظ العيون مخلوقاً جذاباً مشتعل الفؤاد ،
 كيف يكون فى مقدوره أن يتجنب الحب ؟ ! . . . إن الحب
 يذبل فى جو الضغط والإكراه . وجوهره هو الحرية . وهو لا
 يتفق مع الطاعة ، أو الغيرة ، أو الخوف . فلا مندوحة له عن
 الثقة ، والاستسلام التام . وليس الزواج إلا سجنًا . . .
 والتشكك فى الزواج دعاية لا تتذوقها العذارى ، وقلمها تطيب
 لهن . وعلى ذلك ترد هارييت :
 — القيود ؟ . . . إنها بلا شك قيود . . . ولكن ما الضرر منها
 إذا كانت خفيفة . . . لذيدة ؟
 — إذا كانت خفيفة فلا معنى لها . . . أتوضع القيود والأصفاد

في يدى سجين متطوع ؟ ..

— ولكن الدين ؟ ..

— ما ذنب خلأئق خلقتها الله ضعيفة ، ثم يعاقبها ؟ كيف ينتقم من العاثرين المساكين الذين يتركهم يتخبطون في ضعفهم ؟ ! قصة يؤلفها هؤلاء الثلاثة .. إليزابيث تؤيد أخاها .. وهارييت تعارض ، ولكن أنى لها أن تقاوم « نصف الإله » هذا ، ذا العينين البراقتين ، والقميص المفتوح على نحر شفاف ، والشعر المتطاير في الهواء وكأنه خيوط حريرية ذهبية ؟ ! ويرخى الليل سدوله .. فتغادر الأخت المتواظنة الحبيبين الصادقين منفردين في الظلام ..

وفي طريق عودتهما معاً إلى المنزل ، في كآبة الخلاء ساعة المساء ، يتذكر شلى أنه عائد قريباً إلى أروقة أيتون المظلمة ، فيكتئب ، ويحزن .. ولكنه لا يلبث أن يحس تحت يده بجسد بنت عمه الدافئ يخفق ويرتجف ، فيشعر بنفسه ممثلاً شجاعاً ، يواجه بها كالأبطال حياة كفاح ونضال ، يؤدى فيها رسالة

— ٣ —

في أكتوبر ١٨١٠ أخذ المستر تيموثى شلى ولده إلى جامعة أكسفورد وهو مبتهج بهذه الرحلة التي تذكره بشبابه ، وقصد إلى

مكتبة « سلاتر » وفتح فيها للطالب الحديد اعتماداً غير محدود لشراء ما يلزمه من كتب وورق . . « إن ولدى هذا ، يا مستر سلاتر ، من أهل الأدب . وقد سبق له أن وضع قصة . فإذا أراد حتى النشر ، فدعه يرضى هوايته . . . »

واغتنب شللى بالحياة الجامعية : أن تكون له حجرة خاصة به ، وأن يكون حراً في حضور الدروس واختيار ما يروقه من الدراسات ، وأن يقرأ ويكتب ما يشاء ، أو يذهب ليتنزه كما يطيب له . . حياة الرهبنة والزهد تمتزج بحرية فكر الفيلسوف وفي المساء ، عند العشاء ، جلس إلى جانبه طالب جديد مثله ، قدّم إليه نفسه باسم « جفرسون هجج Hogg » ، ثم تحدثا عن مطالعاتهما . . فقال شللى :

— إن أفضل أدب شعريّ في وقتنا هذا هو الأدب الألماني فاعترض هجج ، مبتسماً ، بأن الألمان ينقصهم الطبع . . فهم مسرفون في الخيال . . ولذلك فهو يؤثر الأدب الإيطالي . . فاندفع شللى محتدّاً في نقاش . . .

ودعا هجج صاحبه إلى غرفته لإتمام المناقشة ، فقبل شللى الدعوة متحمساً ، ولكنه أضاع في السلم حبل أفكاره ! . . وبينما كان هجج يشعل الشموع قال شللى بهدوء إنه لا يفهم سبباً في استمرار هذا الحوار ، ما دام يحفل الأديبن الإيطالي والألماني

على السواء !.. وخلصا من الأدب إلى الكيمياء ، وبدأ شاملى خطاباً فى مستحدث مكشفات الطبيعة والكيمياء .

وغدا الشابان لا يفترقان . فكانا يتنزهان كل صباح على الأقدام ، وشاملى يعبث ويلعب كالطفل : يتسلق الرنب ، ويقفز الحفر . . فإذا ما وجدا جدول ماء أو غديراً أجرى شاملى فيه مراكب من ورق ، وتبعها حتى تجنح وتغرق . . ويظل هج ينتظره واقفاً ضائقاً صدره . . وبعد النزهة يصعدان إلى غرفة شاملى وقد أضناه ما بذله من الجهد ، فيتراخى ، ويستلقى على السجادة أمام المصطلى ، منطوياً على نفسه كالقط ، وينام هكذا ، من الساعة السادسة إلى العاشرة . ثم ينهض فجأة ، ويدعك عينيه بعنف شديد ، ويتخلل بأصابعه شعره الطويل ، ويبدأ من فوره يجادل فى موضوع من موضوعات « ما وراء الطبيعة » ، أو يروى شعراً . أو يتحدث إلى هج عن بنت عمه هارييت ، التى يكتب إليها رسائل طويلة تترج فيها نزعات الحب بفلسفة الإلحاد . أو يصف لصاحبه أخته إليزابيث العدو اللدود للأحكام المبسرة والتقاليد العتيقة ، أو يقرأ بصوت مرتفع خطاب أبيه الأخير ، صاحكا مقهقهماً . ثم يتناول أحد كتبه الأثيرة من مؤلفات الفلاسفة : لوك ، أو هيوم ، أو فولتير ، ويعلق عليه بحرارة

قبل عيد الميلاد بأيام تلقى المستر تيموثى شلى فى بريده خطاباً من ناشر كتب فى لندن ، يدعى مستر ستوكديل ، يصف له فيه الإنتاج الخارق للعادة الذى يريد الشاب برسى شلى أن يطبعه . وقال الناشر إن من بين المخطوطات العديدة قصة St. Irvyne ، وهى ملأى بأشد الأفكار الهدامة . . . وإنه قلق لأنه يسلك طريقاً ملتوية خطيرة . ويرى من واجبه أن ينذر رب العائلة ، وأن يلفت نظره بخاصة إلى « جفرسون هج » رفيق السوء الذى يلزم مستر شلى الشاب

فكتب المستر تيموثى إلى الناشر ينذره بأنه لن يدفع له بنسأً واحداً من تكاليف الطبع

وفى عطلة عيد الميلاد كان لقاء شلى بأبيه مؤلماً ، وحاول شلى أن « ينير » والده فى شؤون الدين ، وراح يبرر « عدم الاعتقاد » . . . ولكن أباه فرض عليه الصمت بتلك الحجة الأبدية : « إني أومن لأننى أومن »

وحذرت أمه بناتها من مخالطة شقيقتهم ، لئلا يفسد عليهن إيمانهن . وساد البيت حزن شديد لهذا الحادث ، بعد ما كان يفيض عادة فى مثل هذه الإجازة بالبهجة !

وظلت إليزابيث وحدها مخلصه سرّاً لشلى ، حتى بنت عمها « هارييت » لم تعد تشاركها إعجابها بأخيها ، فإن الرسائل التي تلقتها من أكسفورد ضايقتها وأقلقتها . وبرمت بما اقتبسها شلى من كتاب جودوين فى الإلحاد ، فلم تزد إلا نفوراً
وقلما يتذوق النساء الحميلات الأفكار المتطرفة ! . إن الجمال ، وهو الشكل الطبيعى للنظام ، هو فى جوهره محافظ . وهو يدعم الدين المقرر . وإذا كفرت المرأة بالله فكأنها أشد كفراً بالبيت والحياة والحب ، وكأنها تنكر مملكتها وتنفض يدها من وظيفتها وسلطانها وقد أظهرت هارييت أهلها على رسائل ابن عمها المتشككة ، فوجدوها مبادئ مردولة ، وحكموا بما ينتظر الفتى شلى من مستقبل مظلم . فهل كان يسعها أن تتزوج من مهووس ينفر من هوسه الناس جميعاً ؟ . . إنها تحب الظهور ، وتحب الأناقة والحفلات الراقصة . فكيف تكون حياتها مع هذا المخلوق الشاذ ، حتى الزواج ليس له عنده حرمة ولا ميزان ! فما بال حرمة الدين ؟ وقبل وصول برسى وقعت بين الفتاتين مشاحنات عنيفة ، دافعت فيها إليزابيث عن أخيها :

— كيف تضعين ، يا هارييت ، ترضية الكرامة المزعومة فى كفة ، وهناء العيش مدى الحياة مع خير الرجال فى أخرى ؟
— إنك تجعلين من أخيك مخلوقاً فائقاً ، ولكن ما يدرينى

أنه كذلك حقاً ؟ ولنسلم جدلاً بأنه عبقرى ، فأى حق لى إذن فى أن أبدأ معه حياة تنتهى بخيبة الأمل عند ما يكتشف مبلغ قصورى عنه ، وبعدى عن المحلقة العليا التى كونها فى مخيلته عنى ؟ ! إننى لست إلا فتاة عادية متواضعة ، أشبه ما أكون بسواى من الفتيات . . لسوف يدهش ويقنط عند ما لا يجد فى المثل الأعلى الذى رسمه لى . .

ولما جاء شلى بسطت له إليزابيث الموقف ، فهرول إلى هاريت ، فوجدها ، كما وصفتها أخته ، جافية نائية . لم تسأله تبريراً لموقفه . وإنما سألته أن يتركها لحالها !
قال شلى :

— أفلا أستطيع البوح بما أعتقد . . ولم تنزل بى آرائى الدينية عن مكانتى عندك أختى ، أو صديقاً ، أو حبيباً ؟
— لك أن تظن ما تشاء ، فلا شأن لى بظنونك . ولكن لا تسألنى أن أربط مصيرى بمصيرك ! . .

وخرج شلى مجنوناً حزناً . وعاد أدراجه فى ثناقل إلى البيت . واجتاز الغابات الثلجة الجرداء ، غير شاعر بما يهب عليه من جليد ، وقضى هزيعاً من الليل فى مقبرة البلد التى كانت مسرحاً لأحلام الحب الأولى . . ودخل الدار فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، وآوى إلى فراشه بعد ما وضع إلى جانبه طبنجة عامرة وكثيراً من

أنواع السموم .. لكنه تذكر ما يصيب شقيقته إليزابيث من الحزن عند ما ترى جثته ، فعدل عن الانتحار

وفي اليوم التالى كتب إلى هج يقسم ألا يعنفو عن التعصب الذى يهدم المجتمع ، ويدعم الأحكام المبتسرة التى تقطع أعز الصلات وأحناها. ويشكو له ما أصابه منها، وأنها لم تعد له، بل صارت تمقته لتشككه .. ويحدثه عن الحب، وعن فكرة الانتحار ! وقضى الخمسة عشر يوماً الباقية من إجازته فى جحيم ، بين أب وأم ساخطين ، وأخوات خائفات .. ورفضت هارييت أن تجيء إلى « فيلد بلاس » وهو فيه !

وحاول شلى أن يهدئ من ألمه برؤية هناء غيره ، ففكر فى مشروع خطبة أخته إليزابيث لصديقه هج .. فأرسل إليه أشعاراً نظمها تلميذته هذه فى هجو التعصب ، وقدم لأخته ما تلقاه من أشعار هج ، التى وصف فيها ما أصاب شلى نفسه فى محنته ، فشبهه بشجرة البلوط الفتية ، وشبه « هارييت جروف » بالسوسة التى تنخر الشجرة بعد ما تتسلقها

وكان بوده لو تمكن من دعوة هج إلى قصر « فيلد بلاس » حتى تستطيع إليزابيث أن تراه ، وتحكم بنفسها على صفاته الباهرة .. بيد أن مستر « تيموثى » كان يذكر تحذيرات الناشر منه لأنه رقيق سوء ، فحال دون الدعوة . . .

بعد نحو شهر من هذه العطلة الحزينة ، بينا كان « سلاتر ومونداى » ، صاحبا مكتبة أكسفورد اللذان أوصاهما المستر تيموثى شلى بنزعات ولده الأدبية خيراً ، يتحادثان ، إذ رأيا الفتى شلى يندفع إلى داخل حانوتهما ، وهو يحمل حزمة ضخمة من كتيب صغير . ورجاهما عرضها فى الواجهة البلورية ، وبيع النسخة منها بستة بنسات . وتولى بنفسه تنظيمها بحيث تلفت أنظار المارة . . ونظر صاحبا المكتبة إلى هذا الاهتمام منه بعين العطف ، الذى يظهره عادة تجار المدين الجامعية للطلاب الممثلة جيوبهم بالنقود . ولم يعرفا أية مواد مفرقة عرضها شلى فى مكتبتهما .. كانت رسالة « ضرورة الإلحاد » ، وقد عزاها إلى اسم منتحل : « چرمياه ستكلى »

ولم تمض عشرون دقيقة على ذلك حتى مر بالمكتبة الأب « جون ووكر » المعيد بإحدى الكليات ، فوقف عند واجهتها مندهشاً : « ضرورة الإلحاد » ! .. ثم دخل المكتبة ، وصاح :
 — مستر مونداى ! .. مستر سلاتر ! .. ما معنى هذا ؟
 — حقاً ، يا سيدى ، إنا لا ندرى شيئاً عن ذلك ..
 ولم نفحص هذا الكتيب

— ولكن « ضرورة الإلحاد » ! .. والكتاب يعرف من عنوانه ! .. تفضلاً بإخفائه حالا ، ارفعا كل النسخ التي لديكما منه واحرقاها في النار ! ..

ولم يكن للأب ووكراية سلطة شرعية لإصدار مثل هذه الأوامر . بيد أن صاحبي المكتبة يعلمان أنه تكفى شكواه منهما لتحترم الجامعة على الطلاب دخول مكتبتهما ، فأرسلا مستخدماً من المكتبة ليرجو المستر شللى الشاب أن يحضر لأمر يهيمه :

— إننا آسفان يا مستر شللى لما حدث ، ومن مصلحتك أن ...
فأكد لصاحبي المكتبة المضطربين حقه في التفكير وإبداء
الرأى .. ثم قال :

— لقد فعلت ما هو أفضل من بسط شباكى أمام طيور
أكسفورد المتتوفة الريش ، العمياء .. وبعثت بنسخة من
« ضرورة الإلحاد » إلى كل الأساقفة الإنجليز ، ومدير الجامعة ،
وأساتذة الكليات ، مع تحيات « جرمياه ستكى » ، بخط يدي
لا يد أحد سوى ! ..

وبعد ذلك ببضعة أيام جاء ساع يبحث عن شللى فى غرفة
هيج ، فأبلغه تحيات العميد ، ورجاه الذهاب إليه من فوره .
فذهب إلى قاعة مجلس الجامعة ، فإذا المجلس مجتمع بكامل
هيئته من فريق صغير من الأساتذة المحافظين الشديدي التمسك

بالدين والتقاليد . وكانوا كلهم تقريباً يمتقنونه لشعره الطائر الطويل ،
وخروجه في الزرى ، وميله الوضع للعلوم التجريبية ! . . .

أشار العميد إلى نسخة من « ضرورة الإلحاد » . . . وسأله
أهو المؤلف . ولما كان يتكلم بحفاء وازدراء ، فإن شلى لم يرد عليه !
— هل أنت مؤلف هذه النشرة ؟ . . « نعم » أم « لا » ؟

— إذا أمكنكم التدليل على أننى كاتبها فهاتوا برهانكم .
وليس عدلاً ولا شرعاً أن تسألونى بهذه الطريقة . مثل هذه
التصرفات أولى بمحاكم التفتيش منها برجال أحرار فى بلاد حرة
— أتتكر أن هذا من وضعك ؟

— أرفض الإجابة

— إذن فأنت مطرود ، عليك أن تغادر الكلية غداً صباحاً
وسلم إليه أحد الأعضاء قرار الطرد . . فهرع شلى إلى
غرفة هج . وارتقى على الديوان وهو يرتجف من الغيظ ،
ويكرر : « مطرود ! . . مطرود ! . . » ، وأسأنه تصطك ...
وكان العقاب فظيلاً ، وكان معناه : قطع دراساته ،
واستحالة التحاقه بأية جامعة أخرى ، وحرمانه من الحياة الطبية
الوادعة التى يحبها ويستمتع بها ، وإنزال غضب أبيه وسخطه عليه !
فاستنكر هج هذا التصرف من أولياء الأمر . واندفع
فكتب لمجلس الجامعة مذكرة يرجو فيها ألا يكون الحكم نهائياً ..

وكلف خادماً بحمل هذه الرسالة إلى المحكمة التي كانت ما تزال
مجمتعة . فعاد على الأثر يبلغ هج أن العميد يدعوه إلى المجلس
وهناك سأله العميد :

— هل كتبت هذه ؟ ..

وأشار إلى الخطاب . فاعترف به هج . فسأله العميد :

— وهذه ؟ ..

وأشار إلى نشرة الإلحاد . فراح هج يدلل ببراعة المحامى على
تفاهة الأمر ، وما في الحكم على شلى من ظلم . فقال العميد ثائراً :
— كفى ! .. فأنت مطرود أيضاً ! ..

— ٦ —

حملت عربة أكسفورد المبعدين وحقائبهما . واقترض شلى
عشرين جنيهاً من صاحبي المكتبة ليعيش بها في لندن ،
ريثما يجيئه نبا من أبيه . . ونزلا في غرفة في « بولاند ستريت »
جدرانها مغطاة بورق مزخرف بعناقيد عنب خضراء وزرقاء بدت
لها أجمل ما في العالم ! ..

وحدثت ، ولا حرج ، عما أصاب المستر تيموثي شلى
لما علم بما حدث في أكسفورد ، فقد كانت تهمة الزندقة شنيعة ،
وكان العقاب رادعاً . فكتب إلى والد هج يشكو من هذه

الحنة التي وقعت لوليهما في أكسفورد . . ويرجوه أن يستدعي « فناه » لساعته . ويقول : « أما أنا فسوف أوصي ابني بقراءة كتاب پالي Paley ، في علم اللاهوت الطبيعي ، الذي يناسب حالته ، ويشفيه من فتنته . . بل سأقرأه بنفسى معه »

ثم دبج لفتاه خطاباً قوياً قاسياً يأمره فيه أن يعود حالا إلى « فيلد بلاس » ويمتنع عن كل اتصال بالمستر هيج ، وأن يضع نفسه تحت تصرف السادة الذين سيختارهم له ، وأن يطيعهم... وإلا فإنه ينبذه ويتخلى عنه للشقاء الذي يحيق عدلا بمن تسول له نفسه مثل هذه الآراء !.. وجاء رد الولد قصيراً بالرفض التام... كان الوالد يريد بكل قواه أن يتجنب القطيعة التي تجعل وسائل التأديب عسيرة . أما وقد رفضت « شروطة » فقد سقط في يده !

وسافر إلى لندن ، ودعا الشابين المتمردين لمقابلته بفندق ميلر المشهور بجودة الخمر . وقال لنفسه ، في انتظار حضورهما : « الحق أنه لا بد من معاملة الأولاد باللين والبشر ، والعقل الناضج المستنير كفيلا بالفوز دون عناء على فيلسوف في الثامنة عشرة من عمره ، وبذلك يمكن تجنب الكثير من الويلات . . وبعد ، أفليس شلى هو وارث الضيعة ، وإليه يعود اسم شلى . . فلا مندوحة عن رده إلى جادة الصواب »

وأعد الرجل الطيب حججه المستقاة من كتاب « بالى »

الديني لتسفيهه الزندقة، وفرك يديه بارتياح

وفي تلك الأثناء كان الفتيان قادمين على الأقدام من «بولاند ستريت»، يطالعان بصوت عال، في الشارع، وهما يتصاحكان: «القاموس الفلسفي» لفولتير.. وكان شلى يتلذذ بسخرية الفيلسوف الفرنسي من الشعب اليهودي وقسوة «يهوه» إله بني إسرائيل...

ووجدا المستر تيموثي شلى في انتظارهما مع «مستر جراهام» وكيله في لندن وصديقه. وأحسن المستر تيموثي وفادة هج، ووجه إلى ولده خطاباً طويلاً حامياً غير مفهوم، مصحوباً بالإشارات والحركات التمثيلية، التي بدت للشاين سخيفة. فانحنى شلى على صديقه هج وسأله: «والآن ما رأيك في أبي؟». فقال له هج همساً: «هذا ليس بأبيك.. هذا هو «يهوه» إله بني إسرائيل نفسه!». فانفجر شلى ضاحكاً مقهقههاً حتى استلقى. فاستغرب أبوه، وسأله مستنكفاً: — ماذا أصابك يا برسى؟ هل أنت مريض؟ هل جنت؟ وكان العشاء فاخراً طاب به الحديث. وفي ختامه بعث المستر تيموثي شلى بولده ليوصي بإعداد عربة السفر، وراح يحاول التأثير في هج، ويتخذ منه نصيراً: — إنك يا سيدى تختلف تماماً عما كنت أتوقع.. فأنت

سيد ظريف ، متواضع عاقل ، فماذا تشير على نحو ولدى المسكين ؟ فهو مهووس . . أليس كذلك ؟

— لو أنه كان قد تزوج بنت عمه لأصبح شخصاً آخر ، فهو بحاجة إلى شخص يعنى به . بحاجة إلى زوجة كريمة — ولكن كيف ؟ هذا مستحيل ! . . لو أنني عرضت الزواج على برسى لرفض حتماً . . فأنا أعرفه . . .

— إنه يرفض إذا ما أصدرت إليه أمراً بالزواج . ولكن إذا ربطت حباله بفتاة تعتقد أنها تكون قرينة طيبة له ، دون ذكر شيء عن الزواج ، فاعله يتعلق بها ، وإذا لم توفق الأولى فيمكن تجربة سواها ! . . .

فأطرى المستر جراهام هذه الخطة . . وأخذ الرجلان يستعرضان أسماء الفتيات . . .

وعاد شلى . فأمر أبوه بزجاجة أخرى من أعتق نبيذ إسباني ، وبدأ يثنى على ذات نفسه ، ولما أحس بأن النبيذ قد فعل فعله في مدعويه دخل في الموضوع الأساسى لرحلته ، وجادل ولده في الدين ولم ينكر أحد من الحاضرين وجود الله . . ومع ذلك رفض شلى أن يتبع أباه ، ورفض أبوه أن يعطيه بنساً واحداً . وعلى هذا افترقوا ، وفاز هيج وحده بإعجاب والد شلى ، فقد وجدته إنساناً أرق من ولده ، وليس مثله كبرياء وعناداً ، وأنه يفهم الحياة .

ورأى فكرته عن زواج شلى معقولة . وكذلك رأى هج أن والد
صديقه سليم الطوية ، كريم الضيافة
أما والد هج فقد نصح ولده أن يتابع ممارسة القانون ،
ووجد له محلاً في مكتب محام بمدينة يورك . . فترك هج صديقه
شلى في غرفة « بولاند ستريت » ، كما لو كان ثعلباً حائراً بين
عناقيد العنب الخضراء والزرقاء . . .

— ٧ —

أما وقد بقي شلى وحيداً في لندن ، بلا صديق ، ولا عمل ،
ولا مال ، فقد سقط في مهاوى اليأس والقنوط . وكان يقضى
أيامه في غرفته ، ينظم الأشعار الحزينة ، ويكتب الرسائل إلى
هج . ولا يكاد ينصرف إلى التأمل حتى تتمثل في ذهنه صورة
بنت عمه الحميلة ، اللاهية . فيتعذب ، ويحاول جهده أن
يخلص قلبه من هذه الرؤى الأليمة ، مردداً « أنه لم يكن يحب جسد
تلك المخلوقة ، بل روحها ، التي تغيرت فلم تعد هي ، وعلى
ذلك لم يعد لها وجود . . »

غير أنه لم يجد في هذا التدليل المنطقي عزاء . وزادت
مسألة النقود تخرجاً . فلم يبدأ به حساً ، ولا خبراً . والتقى به ذات يوم ،
بطريق الصدفة ، في شوارع لندن ، فسأله بأدب عن صحته . .

فكان كل ما تلقاه من الرد نظرة سوداء ، كالغيوم ذات الرعود !
ولكن شقيقاته كن يرسلن إليه مصروف أيديهن ، وكان
ذلك كل ما يعيش عليه ، وكانت إليزابيث فى قصر فيلد بلاس
تحت الحراسة ، أما شقيقته الصغيرتان فكانتا فى معهد داخلى
اسمه « مجمع الشابات » ، ولم تلبث طالباته أن تعرفن بالعمين
الساحرتين ، والقميص المفتوح ، والشعر الثائر الطائر المجنون :
تلك المميزات التى خص الله بها أخا هيلين شلى !

وكان يجىء وجيوبه محشوة بالسكويات والزبيب ، ويبدأ
يتحدث فى الأبديات ، أمام حلقة من الصبايا المفتونات . . .
وقد عنى خاصة بأن « ينير » أجملهن ! . . وكان أشد ما يكون
إعجاباً بزميلة أختيه وأعز صديقة لهما ، « هارييت وستبروك »
(هارييت أيضاً ! !) ، وكانت فى السادسة عشرة ، ذات
شعر أشقر أحمر ، وذات بشرة وردية ناصعة البياض ، صغيرة
القد ، نحيلة الغصن ، رائعة الحسن ، تفيض مرحاً ذكياً ،
ونضارة شائقة ! . وقد زاد نفعها عند ما أصرت مسر فتنج
الناظرة (بناء على أوامر تلقتها من المستر تيموثى) على الحد من
زيارات شلى لمجمع الشابات . وكانت هارييت تخرج كل يوم
صباحاً ومساءً ، ذاهبة من البيت إلى المعهد ، ومن المعهد إلى
البيت . فعهد إليها بأن تحمل إليه النقود ، والفطائر ، والحلوى . .

وهكذا أصبح ناسك صومعة « بولاند ستريت » خير صديق لها
 وكان والد هارييت وستبروك فيما مضى خماراً ، فأراد أن
 تترى بنته تربية بنات الأشراف . ولما ماتت أمها تولت أمرها
 أختها الكبرى إليزا ، العذراء الناضجة

ولم يكن غريباً أن تهتم أسرة وستبروك بهذا الفتى النبيل ،
 الوريث لثروة طائلة ، الجميل كالألهة ، الذى يعيش فى غرفة
 صغيرة على الخبز والتين المخفف ، تحمل إليه الآنسة وستبروك
 الصغيرة « مصروف » شقيقته ليحول دون موته جوعاً . . .

ورغبت إليزا أن تراه ، فجاءت به هارييت إلى البيت على أثر
 إحدى جولاتهما . وكانت إليزا بادية العظام ، فى وجهها الأبيض
 الكالح آثار جروح وندوب ، وعيناها منطفئتان ، تنظران ولا تنطقان
 عن ذكاء ، وشعرها كتلة سوداء كالربوة تشرف على هذا كله .
 على أن شلى لم يلبث أن نسى نفوره البادى من قبح هذه العانس
 عند ما رآها تبدى له ودها . فهى لم تعارض فى زيارات أختها
 لغرفة « بولاند ستريت » ، بل شملتها برعايتها ، ودعت شلى
 مرات عديدة للعشاء معهما فى غياب المستر وستبروك .
 واكتسبت قلبه حين سأله بدورها أن تستنير وتتقف ، مع
 هارييت ، بمطالعة « القاموس الفلسفى » تحت إشرافه ! . .

وسرعان ما لوحظت فى « مجمع الشابات » نزوات هارييت

مع شلى . فنصحتها إحدى المعلمات بالخطر منه ، فربما كانت أخلاقه من نوع أفكاره الكافرة . ثم ضببطت معها رسالة منه ممثلة بأخطر الحجج والآراء . فهددت بالفصل لمكاتبها « زنديقاً » ! . ولوت بنات الأشراف أكتافهن لبنت الخمار

وبينا كان شلى ، ذات مساء ، يقرأ إلى جانب المدفأة ، وحيداً ، جاءه نبأ من إليزا بأن هاريت مريضة ، وترجوه أن يحىء ليؤنسها . فذهب ، فوجدها فى فراشها ، شديدة الشحوب ، ولكنها أجمل منها فى أى وقت مضى ، بغدائر شعرها الكستنائى الذهبى ، المرسلة من حولها . . وجاء المستر وستبروك لتحيته ، فشعر شلى بالخرج حين رآه ، وبدت له غير لائقة هذه الزيارة الليلية فى خدر فتاة . . بيد أن المستر وستبروك كان ظريفاً ، فحياه ثم قال : « آسف لعدم استطاعتي البقاء معك . لأن عندى أصدقاء فى الطابق الأرضى . فتفضل إذا شئت بالانضمام إلينا فيما بعد » . . فشكره شلى . . وتمنع ، خوفاً من أصحابه ! وجلس إلى جانب فراش هاريت ، وإليزا بقربهما . . وكانت فى تلك الليلة ذلقة فصيحة ، فتحدثت طويلاً عن الحب . . وما لبثت هاريت أن اشتكت من صداع شديد لا تحتل معه دوى الكلام . . فاستأذنتها إليزا ونزلت إلى حجرتها . . وترك الشينين الصغيرين وحدهما . . وبقي شلى إلى ما بعد منتصف الليل . .

لقد صار منى شلى أخف وطأة منذ أصبح يستقبل فيه
الفتيات ، و « ينير » عقولهن . ومع ذلك كان يشكو بعده عن
أخته إليزابيث التى لم تعد ترد على رسائله . . أتكون تحت
الحراسة ؟ . ماذا لو أنه زار فيلد بلاس ذات مساء ، وقابل
بالصمت لعنات أبيه ؟ . .

وجاءه الفرج بمجىء خاله « الكابتن بيلفولد » ، وكان هذا
الكابتن البحرى شيخاً شهماً ، تولى بارجة تحت قيادة نلسون فى
ترافلغار . . وكان يؤثر ألف مرة هوس ابن أخته ، الفيلسوف
الشاعر ، على زوج أخته المستر تيموثى المتصلب . . وليس
يعنيه من ىرسى شلى تشككه أو إيمانه . . فدعاه إلى ضيعته فى
« ككفيلد » على عشرة أميال من « فيلد بلاس » ، وتطوع
شلى بأن « ينير » مضيفه ، فأظهر الكابتن أنه تلميذ نجيب ،
بحيث أدهش ، بعد أيام ثمانية ، قسيس القرية وطبيبها ،
بحججه المنطقية النارية ! . .

وتعرف شلى بمعلمة الناحية « مس هتشر » ، وهى فتاة
جميلة ، ذات وجه رومانى ، فى نحو الثلاثين ، لها نزعة جمهورية ،
مشهورة فى القرية بأنها خيالية ، ومتغطسة . وكانت تشكو من
أن أحداً لا يفهمها . وأعجب شلى بنبالة وجهتها ، لكنه امتعض
إذ رآها تعتقد بالله وحده ، مع إنكار الوحي والنظم الدينية ! . .

فاقترح عليها أن يجادلها « بالمراسلة » لينقذها من ضلالها ! .. فقبلت
وفى خلال ذلك كان الكابتن بيلفولد قد حمل حملة صادقة
على زوج أخته المستر تيموثى شلى ، واستعان عليه بدوق نورفولك
زعيم حزب الأحرار السياسى . . فعاد شلى إلى فيلد بلاس وقد
منح مئتي جنيه سنوياً ، بلا شرط ولا قيد

ولقى أخته إليزابيث . غير أنه صعق لما أصابها من تغير ،
فقد صارت مريحة طائشة عابثة إلى حد لا يصدق . لقد عرفها
من قبل متحمسة ولكن فى وقار وكرامة . أما الآن فقد انصرفت
عن الفكر والرأى والجدل ، واندفعت فى تيار الملامى الخطرة ،
والحفلات الراقصة ، والأحاديث التافهة . . فحاول أن يتلو عليها
كما كان يفعل من قبل رسائل هج . . فصاحت :

— أف لك ولصديقك السخيف ! . . فكل الناس الذين
أعرفهم يحكمون عليكما بالجنون . . .

ثم عرجت على حديث الزواج . لم تعد تفكر إلا فيه .
وما كان ثمة شئ يملأ شلى رعباً كالزواج . فهل تراها نسيت ما
طالعه ، ومبادئ « جودوين » السليمة ؟ . . قال :

— الزواج شئ بشع كرهه . وإن قلبى لينقبض إذ أفكر
فى هذه السلسلة الشنيعة ، أثقل ما صنعه البشر من الأصفاذ
الحديدية والأغلال لتقييد النفوس الكريمة . . والناس الشرفاء ليسوا

بحاجة إلى الشرائع .. هل ترين رجلاً شريفاً يرضى بإخضاع مخلوق حبيب إليه ، عزيز عليه ؟

— ولكنك مع ذلك كنت تريد أن أتزوج صاحبك هج !
— أجل ، ولكن لا على يد قسيس ، أو طبقاً لشرائع الخلق ، بل زواجاً حرّاً ، الحب كاهنه ! ..
فقالت إليزابيث باحتقار :

— أهذه إذن هي النصائح التي تسليها إلى أختك يا برنى ؟
لقد ضاعت إليزابيث في نظره . لم تعد تنطق إلا عن الهوى !
إنه لم يحى إلى هذه الدار إلا ليراها . فلم يعد أمامه الآن إلا الرحيل

وجاءته دعوة من ابن عم لأمه في مقاطعة ويلز . فلباها .
وفي مروره بلندن كتب إلى مس هتشير يتمنى لو رآها
وتغدى معها . فردت عليه بأنها تخشى مغبة هذا اللقاء على
سمعتها ، فضلاً عن التباين بين مركزها الصغير ومكانته
الاجتماعية ! .. فاستنكر هذه الفكرة ، وكتب إليها خطاباً جميلاً
في المساواة بين الطبقات ، ودعاها فيه « شقيقة روحه » ..
فبدأت تفكر في أن اسم « اللادى شلى » هو اسم بديع ..
وراحت تنظر إلى نفسها في كل مرآة ...

شلى الآن على صخور بلاد الغال ، يصغى إلى هدير
السيول ، ويقرأ رسائل أصحابه . فهو ، من عزلته الموحشة هذه ،
ما زال يوجه عدة نفوس : مس هتشر المعلمة ، هج الوفى ،
خاله الكابتن بيلفولد الذى صار ويلا على المتقين ، إليزا
وهارييت وستبروك . . وغيرهم

وتلقى شلى من هارييت رسالة أحزنته وأقلقتة . لقد أراد أبوها
أن يرغمها على العودة إلى « مجمع الشابات » حيث الطالبات لا
يخاطبنها ، والمعلمات يعددنها فتاة ساقطة . فهى تؤثر أن تقتل
نفسها على البقاء فى هذا السجن !

وجزع شلى . فقد بدا له منطق تلميذته لا غبار عليه ،
وهى دروسه التى كوَّنت هذه التلميذة . ولكن أيتخلى عنها
للموت ؟ إنها تستطيع أن تقاوم ، وتأبى العودة إلى المدرسة
وكتب إلى أبيها خطاب عتاب . فاستنكر الخمار خطابه :
فيم يتدخل هذا الفتى الأرستقراطى ، الذى يحوم منذ ستة أشهر
حول بنتيه ؟ . . .

وزعمت إليزا أنه سيتزوج من هارييت . . ولكن هل سمع
الناس يوماً أن بارونا تزوج من بنت صاحب حان ؟ إن هذا الفتى

ينشد ولا شك شيئاً آخر غير الزواج . فإنه منذ ذلك المساء الذى
 رآه فيه بحجرة بنته ودعاه لتناول كأس مع أصحابه فأبى واستكبر
 حكم بأنه لا يمكن لحفيد السير بسيش شلى ، صاحب الملايين ،
 أن يكون صديقاً للشعب ، أو نصيراً للمساواة !

وتلقت هارييت منه أمراً بالاستعداد للسفر إلى المعهد .
 فكتبت إليه أنها أشد ما تكون شقاء ، وأنها مضطهدة إلى أقصى
 حد . . . وأنها مستعدة للهرب معه إذا قبل . . .

مامن شك فى أن عليه التزامات نحو هذه البنية . فهو الذى
 نفخ فيها من روحه ، لتكون روحها بأسلة ، تأبى قبول المظالم .
 وكانت رسالة منه هى السبب الأول فيما جرى عليها من الخزي .
 ولكن إذا هرب معها فكيف يعيشان ؟ وأين ؟ .. ومم ؟ .. فهو
 لا حرفة له ، وليس أمامه مستقبل ! . ويا ترى أهو يحبها ؟ وهل فى
 مقدوره أن يحب بعد اليأس الذى أردته فيه هارييت الأخرى ،
 بنت عمه ؟ ..

بيد أن هارييت هذه ذات حسن خلاب
 وأسكرته فكرة الرحيل بصحبة هذه الإنسانة الساحرة ، التى
 أثارتها إذ رآها ذات ليلة مريضة فى فراشها ، مجللة بغدائر شعرها
 المتألق كالنار . . لقد كان يعز عليه أن يبعد هذه الصورة اللذيذة
 عن خياله . فذهب إليها فرآها شحبت ، ونحفت ، واكتأبت :

— إذن ، فقد عذبتك كثيراً ؟

— كلا . . . يا صديقي . . . كلا . . .

وترددت في أن تقول « إنما تعذبت لأننى أحبك » . . . غير أن ذبولها ، وعينيها المتعلقتين بعينيها ، واضطرابها ، هذه كلها باحت له بسرها . فقد كانت مجنونة به ، مشغوفة حباً . وقد حوّلها وبدّلها خلقاً آخر ، وهى من قبل قد أرادت أن تردده إلى الطريق المستقيم ، ولكن منطقته جرفها فى تياره ، وتقبلت هزيمتها ، راضية هائلة . . . وإنها الآن تعبد الرجل ، وتتبع المبدأ !

وكتبت إليه تعالى فى متاعبها ونوائبها ، لكى يهرع إليها . . . فخیل إليه أنه من الویل تكريس الحياة لامرأة ، إذا كانت هذه الحياة ستكرس لخدمة الإنسانية . بيد أنه ، إزاء هذا الوجه الفتان ، الذى تكفى كلمة واحدة منه لتبديد سحب الحزن المنعقدة على جبينه ، ضعف ، وقرأ على مبادئه السلام . . . ولكنه استبعد فكرة الحرب حالا ، فلا حاجة إلى تعجل الحوادث . . . ولكن لتطمئن هاربيت ، فإذا حاولوا معها تعسفاً أو عنفاً فما عليها إلا أن تدعوه ، فيلبىها ، ولو كان فى أقصى الأرض ، ويأخذها عنهم وكتب إلى هج يصف الموقف ، فرد عليه يرجوه ألا يهرب مع هاربيت قبل الاقتران بها . وكان هج يعلم كراهية شلى للزواج ، فجابهه بحجج قوية : « إذا كنت لاتزوجها ، فمن ذا

الذى يخاطر ويعانى ؟ إنها هى التى سيحتقرها الناس . إنها هى
التي ستضحى بسمعتها وأمانها ، فهل من حقدك أن تسألها هذا ،
أو تفرضه عليها ؟ »

ولم يكن شلى يشمئز من شيء اشمئزاه من الأنانية .
ولكنه أحس أنه بزواجه يرتكب أمراً مشيناً ! . كانت فصول
«العدل السياسى» عن «السلاسل الزوجية» تقلقه وتعذب ضميره ،
فقليل له إن جودوين نفسه قد تزوج مرتين .. فاطمأن واستراح ،
لكنه لم يتعجل تطبيق الفكرة الجديدة

ودعاه عمه الكابتن بيلفولد إلى بلدته ككفيلد . فلبى الدعوة
فرحاً بأنه هناك سيلقى المعلمة الجميلة ، ذات الوجه الرومانى ،
«شقيقة روحه» ، التى كان يريد أن يتم «تنويرها» وتلقينها تعاليمه !
وواعد هارييت بأن يعود إلى لندن عند أول نداء منها . .

وقبل أن ينتضى أسبوع واحد جاءت رسالة مستعجلة
تدعو شلى إلى لندن ، فإن الطغاة يريدون من جديد تسليم الملك
الكريم إلى الشيطان المدرسى الرجيم ! . فرأى شلى أن الداء لا
دواء له ، فعرض عليها : الفرار ، ثم القران . .

وفى اليوم التالى حملت عربة المسافرين إلى إدنبره ، عاصمة
أسكتلنده ، هذين الطفلين ، اللذين لا يتجاوز مجموع عمرهما
معاً خمسة وثلاثين عاماً . . .

زوجان عاشقان حدّان ، جميلان ومضطهدان ، يؤثران في النفوس ، ويستميلان القلوب ، إلى حد لا يكاد يُقاوم . هل يسع أهل إدنبره ، إلاّ الترحيب بهما ؟ . بهانين الزوجين الصبيين ، اللذين وصلا إلى أبواب مدينتهم في بؤس مشرق ! .. وكان شلى قد اقترض بضعة جنّيات من صديق لم يبق منها عند الوصول إلى إدنبره بنس واحد . وكان عبثاً أن يرجو مساعدة من أبيه المستر تيموثى ، الذى جن لفرار ولده . ومع ذلك فقد وجد مالكاً ظريفاً روى له قصته ، فأثرت فيه حكاية هذه المغامرة ، وآية جمال هارييت ، والوعد بالدفع السريع . فأجر لهما دوراً أرضياً بديعاً .. وأقرضهما المبلغ الضرورى للطعام خلال بضعة أيام ، وللاحتفال بعقد قرانهما طبقاً للطقوس الكنسية الأسكتلندية البسيطة . وكان شرطه الوحيد : أن يقبل شلى وزوجته دعوته إياهما فى ليلة زفافهما للعشاء معه وأصحابه .

وعلى ذلك احتفل حفيد السير بيسش شلى بليلة عرسه ، فى وسط تجار إدنبره . . وعملت نشوة الخمر ومحاسن هذين الزوجين الشابين فى رؤوس الضيوف ، أولئك الأتقياء الشرفاء . . وتطورت الدعابات إلى سفاهات . وزاد احمرار وجه هارييت

الحسناء ، المتواضعة . . فانصرف عنهم شلى وزوجته
وبعد فترة قصيرة قرعوا باب غرفتهما . ففتح شلى .
وقال صاحب البيت وهو يترنح ، ومن ورائه أصحابه جميعاً :
— إن العادة عندنا جرت بأن يأتى المدعوون ليلة الزفاف فى
منتصف الليل ، ويحتموا العروس بالويسكى . . .
فصاح شلى مسدداً بيديه مسدسيه :

— إنى ألهب بالرصااص دماغ من يتجاسر على الدخول !
وكان صوته يرتجف ، وعيناه تبرقان كما كانتا تبرقان فى
كلية أيتون . فرأى تجار إدنبره أن هذا الفتى ، الذى له رأس
فتاة ، أشد خطراً مما يبدو ، وأقوى مراساً مما كانوا يزعمون . .
فانحنوا له ، وتمنوا ليلة طيبة ، وانصرفوا

إن بضعة أيام قد كفت هذا الزوج الشاب ، الذى كان
يرى أن عمله هذا « وليد الإرادة لا الهيام » . . كفته ليزوب
جوى وصباية ! . . وكانت هارييت فعلاً آية جمال : دائمة
الحسن ، دائمة النظارة ، والحيوية ، شعرها دائماً منسق ،
ممشط ، منظم ، بغير خصلة واحدة مجنونة طائرة . . فهى بهذا
كله أشبه ما تكون بزهرة بيضاء وردية مستوية على غصنها ،
أو ملكة مسنوية على عرشها . . وكانت ثيابها بسيطة جداً ،
ولكنها دائماً نظيفة أنيقة . وهى وإن لم تكن مثقفة حقاً ، فقد

كانت مهذبة جداً ، ولا سيما أنها قرأت عدداً كبيراً من الكتب . وكانت تقرأ طول النهار ، وتفضل الكتب الأخلاقية . وقد بعث فيها أستاذها وحببيها روح الفضيلة والعفاف . وكان «تليماك» في قصة «فنلون» المشهورة هو بطله الأثير عنده ، فصار بطلها ! وكتب إلى مس هتشنر ، معلمة القرية ، « شقيقة روحه » ، يتساءل في قلق عما تظن في زواجه : « يا أعز صديقة ، أيمكنني أن أظل أدعوك هكذا ؟ أم أنني فقدت بسلوكي المبهم تقدير الحكماء والفضلاء ؟ . . لشد ما نحن عبيد أرقاء للظروف ! . . ولعلك تتساءلين كيف لي أن أرضخ لطقوس الزواج ! .. وإذا لم تكن هارييت ، وهي في السادسة عشرة ، ما أنت عليه في سنك المتقدمة عنها ، فساعدني على تكوين تلك النفس الجديرة بعنايتك ورعايتك . . . »

ودعاها أن تلحق بهما لتعيش معهما في إدنبره ، حيث صار وجود هارييت حائلاً دون أية مظنة

فلم تقبل مس هتشنر الدعوة . وربما كان نداؤه الشعري المحبب « يا أعز صديقة » غير كاف لمحو العبارة المنحوسة الخاصة بالأعمار : « السادسة عشرة » ... « السن المتقدمة عنها » ... وذات يوم جاء هج ، ليقضى معهما بضعة أسابيع في إجازة . ولما رأى هارييت بهت من جمالها . فهو لم ير قط امرأة

مشرقة بالشباب والهناءة والحسن مثلها

واقترح شلى الخروج للتنزه وزيارة قصر مارى ستيوارت .
ولما خرجوا عاد شلى فاعتذر بأن لديه خطابات يكتبها ، ورجا
هارييت أن تصحب هج فى الصعود إلى الأكمة المشرفة على المدينة
كلها .. وأعجب هج بالمشهد كثيراً .. وظلا طويلا جالسين على
القمة . ولعل دليل هج قد راقه ، بحيث راقته التزهة أيضاً ! ..
وفى نزولهما لاحظت هارييت : أن الهواء الشديد يرفع ذيل
ثوبها ، وأن هج ينظر خلصة ، باهتمام ، إلى كاحليها ، ومفصلي
ساقها ... فعادت ، وجلست على الصخرة ، وأعلنت أنها
ستبقى حيث هى ، إلى ما شاء الله ، أو تسكن الريح .. وكان
هج يتضور جوعاً ، ففضى وحده ، وتركها ... وبعد ذلك
تبعته تجرى من خلفه ...

وكان شلى يخرج كل صباح لتسلم بريده الضخم ، وبعد
الغطور يترجم للعالم الفرنسى « بوفون » مؤلف « التاريخ الطبيعى »
الذى كان قد بدأ فى نقله إلى الإنجليزية . وتذهب هارييت
وهج للتنزه . فإذا ساء الجو جلست تقرأ له ، لأنها كانت تحب
كثيراً المطالعة بصوت عال ، وتحسنها الإحسان كله
وكان ذلك فى عام ١٨١١ ، عام النجم المذنب المشهور ،
وعام النبيذ الفاخر ، وعام الليالى المشرقة بالصحو والصفاء ..

لما انقضت إجازة الأسابيع الستة ، وأن طبع أن يعود ، قرر شللى وهارييت أن يصحبا ، ليعيشا معه فى يورك ، أصدقاء لا يفترون ، خلال الأشهر الباقية على مدة تمرينه ، ثم يذهب ثلاثتهم إلى لندن ، ليقضوا بقية أيامهم : يقرأون ، ويكتبون ، ويطالعون

وكان لقاء شللى لمدينة يورك مخيباً للأمل . فقد وجدها بلدة كئيبة ، غرفها حقيرة ، فكرهها . ورأى أن يقصد خاله الشهم الكابتن بيلفولد ، وهناك يزور مس هتشنر ، المعلمة ، « شقيقة روحه » . فلعلها تقبل الحضور معه إلى يورك . ثم يمر بلندن ، ويأتى معه بإليزا ، التى اشتاقت إليها هارييت . فسافر . وبقيت هارييت وهج وحدهما . فكان مركزاً غريباً لذيذاً معاً . فهما فى هذه المدينة طليقان كما لو كانا فى جزيرة بعيدة عن العمران . . وأحست هارييت بمسرة الطفلة ، إذ أصبحت هكذا « ربة بيت » لهذا الرفيق الشاب المرح . فإن هج ، بلهجته اللاذعة الساخرة ، يدخل على فؤادهما ألواناً من البهجة ، وكان معجباً بكل ما فيها . يلحظ ثيابها ، وبزتها ، وزينة شعرها . ويصغى إلى قصة « تليماك » المملة وهى تطالعها ،

ويثنى على صوتها ! ..

وفكر هج : هذه الدرّة الفاتنة ، يتركها شلى له وحده عن طيبة خاطر ، وهى من أسرة خمار ، لم تربها على ملاحظة ضروب التحفظ والتحرز . . أن يعيش هكذا معها ، قد بعث فيه رغبة جامحة فى تمنيها بكل قواه . ولكنه قال لنفسه : « إن هذه فكرة سوء شنيعة ، وإن زوج صديق يحبه كل هذا الحب لا يجوز أن تكون طريدة له . . يلاحقها برغبته . . ولكن هل الذنب ذنبى إذا كان شلى يلقى بها فى أحضانى ؟ أيمكن أن يتصور المرء منه كيف يقضى أيامه ولياليه فى كتابة رسائل عن الفضيلة وفى بيته مثل هذه الدرّة اليتيمة ؟ . . إنها امرأة آية ، ومعجزة فى الغاية »

وفى أول يوم لغياب شلى خرجا يتنزهان على شاطئ النهر . وطفق يحدق فيها ، مفتوناً بها ، ويقول لها ألوفا الحماقات . فراحت تتكلم عن زوجها ، الذى تنتظر عودته بفارغ الصبر ، لأنها تريد أن تراه ، وتعلم أنه سيحمل إليها شقيقته العزيزة إليزا : — سوف ترى إليزا . . إنها جميلة جداً . ولها شعر أسود فاحم يتوجها . وهى حادة الذكاء . . وهى التى هدتنى فى الظروف الخطيرة التى مرت بى ، وهىأت لى من أمرى رشداً . . — أمرت بك إذن ، أيتها البنت الصغيرة ، ظروف خطيرة ؟

فروت له هارييت متاعبها فى المدرسة ، ثم عقبات زواجها .
وظلت فترة منحنية بفكرها على الماضى

ويمضيان هكذا فى نزهتهما ، يتبادلان الاعترافات . .
ثم يعودان إلى البيت . . فيعدان الشاى ، وهج لا يفتأ يمزح
ويلعب . . ثم تقترح هارييت أن تطالع له . ولكنه لم يدرك مما
قرأته فى تلك الليلة حرفاً . .

وفى اليوم التالى قال لها إنه يحب جنون مستعر ! . .
فاضطربت ، وسخطت . ودافعت عن نفسها . وذكرت شلى ،
وتحدثت عن الفضيلة :

— أفلاترى شناعة مسلكك ؟ . . أيعهد برى إليك حمايتى
فتخون ثقته ؟ . . ولكننى مطمئنة إلى أنك قد شفيت لساعتك ! .
وأتوسل إليك ألا تشير بعد الآن إلى هذا كله بكلمة . . .
ومن جانبى لن أحزن شلى القوى الإيمان بك ، فسألزم الصمت ،
وأضرب صفحاً عما كان

وكانت تتكلم بحماسة ! . . واعترافات الهوى ومشاهده هى
معارك المرأة الجميلة . والجندى الجرىء لا يكره القتال . .
وانتصرت هارييت الباسلة . . ووعد هج بأن يكون عاقلاً

ولما عاد مساء من مكتبه رأى إلى جانب هارييت ، على
الديوان ، امرأة كبيرة ، ذات شعر أسود . . فقالت له هارييت

— هج .. هذه إليزا .. وقد جاءت .. أليس ذلك ظرفاً
 منها ؟ .. وهذا هو هج ، يا إليزا ، صديقنا الحميم ، الذى
 كثيراً ما حدثك عنه شلى ..
 فحننت إليزا رأسها بجفاء ..

ومنذئذ صار جو هذا البيت عنده لا يحتمل ، فقد تولت
 الأمر فيه إليزا ، واحتلت مكانها فيه ، تقوده كما يقود القبطان
 باخرته ، يرفع على ساريتها علمه ، ولا يسمح على ظهرها بسيد
 سواه .. وقد بدأت عملها بانتقاد سلوك شلى نقداً مرّاً :

— إذن، فلو أننى لم أجب لتركك شلى هكذا وحدك مع رجل
 شاب ؟ .. إن هذا لا يليق . ويناديك : « يا حبيبتي
 هارييت » ؟ وأنت تسمحين له به ؟ يا لرحمة السماء !

كان هج منذ محاولته الأولى قد احترام وعده بأن يكون عاقلاً
 وقد فرحت بذلك هارييت وخاب أملها معاً ! .. كانت واثقة
 من قدرتها على الذود عن عفتها ، ولم تكن تكرر الإغراء لتبرهن
 على ذلك ! ... وخرجاً يوماً فى نزهة قصيرة ، فوقف هج على
 الكوبرى ، والنهر من تحته يجرى ، ويغلى

— هارييت ، يا حبيبتي ، أفلا ترين أن إليزا تحسن عملاً
 لو انطوت فى مياه النهر المتدفقة ، فتجذبها دواماته من شعرها ،
 فتدور ، ثم تدور ، كهذه القطعة من الخشب ! ..

فأدارت هارييت رأسها ، وانفجرت ضاحكة . . إن هج
 كان وقحاً ، ولكنه لذيذ الدعابة حقاً . .
 — ما أرق ضحكك ! . . إنها ضحكة موسيقية ، شجية ،
 تشرح الصدر . . أيتها العزيزة هارييت ! . .
 فأحست هارييت الباسلة أن الحرب على الأبواب ! . .

— ١١ —

فى اليوم التالى عاد شلى قبلما يتوقعون . وهو لم يوفق فى
 شىء ، فقد رفض أبوه أن يراه ، وقال لبيلفولد : « لكنك أوتر
 أن أدفع نفقة أولاده غير الشرعيين . . . أما أن يتزوج فلا
 تذكره لى بعد الآن بخير ولا شر ! . . »

وخشيت المعلمة مس هتشر على سمعتها ، فرفضت صحة
 شلى إلى يورك . ولما مر بلندن عرف أن إليزا لم تنتظره . فرجع
 متعباً ، مضنى ، منكسر الفؤاد ، مؤملاً أن يجد عزاء فى صحة
 زوجه وضديقه . فلم يجد إلا جواً مثقلاً بالضيق والخرج . .
 إليزا مغلقة على نفسها حجرتها ، تمشط شعرها ، طوال نهارها .
 وهج وهارييت لا يمزحان كعادتهما ولا يتجادلان ، فإذا ما خاطب
 هج هارييت ردت عليه بلهجة جافة . . فقال شلى لهارييت :
 — إني لا أحب منك ، يا عزيزتى ، مظهر الكبر الذى

تتخذينه إزاء هج . . فهو خير صديق لى . وقد جاء ليرعاك فى غيابى . وإذا كانت أختك اليوم عندك فلا تجعلى هذا سبباً فى التكر لرجل أعدده أخاً . . .

— يا له من صديق بديع ! . لقد قال إنه يحبني حباً جنونياً ! .
فحاولت أن أمزح وحملته على السكوت ، وزعمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه أمس عاد فأعلن إلى أنه لا يستطيع العيش من دونى ، وأنه سيقتل نفسه إذا لم أستسلم له !
فشعر شلى بدمه يجمد فى عروقه . وكأن قلبه قد كف عن الخفقان :

— هج ! هج فعل هذا ؟ ! ولكن ألم تلفتيه إلى . . .
— قلت له كل ما يمكن قوله .. إنه يخون عهد الصداقة ،
وإنه يغتال ثقتك فيه ، فأجابنى : « وما شأن هذا كله عند ما نحب ؟ .. إنه مما يناسب شلى ، ذا الروح البارد الجامد ، أن يحاضر فى الفضيلة .. أما أنا فأحبك .. وكل ما بقى نافلة لا يعتد بها .. ثم أى ضر يحق بشلى ؟ .. وفيم لىء إليه ما دام سيظل جاهلاً بعلاقتنا ؟ .. فلماذا لا تعدينى بحبك إذا ظلمت محتفظة له بعطفك ؟ .. وهل هو يعنى كثيراً بك ، أو يفكر فيك ؟ .. » وقال عنك إنك متحمس للخزعبلات والأوهام ، وإنك شعلة أفكار ، ولكنك جلمود ثلج إزاء العواطف ، وليس

لغير العواطف وزن في حياة الإنسان . . فأجبت جاهدة ما
استطعت إلى الجواب سيلاً . .

فخرّ شللى على الديوان مرتعشاً ، وبدت له الدنيا غبراء
متشحة بنقب سوداء ، ودارت به الأرض . . ثم سقطت من
عينه الدنيا . . . « أما أن هج قد حاول غواية زوجتي ، وأن
يختار لهذا اللحظة التي أعهد فيها إليه رعايتها . . . وهو الذي
كان قلبي لا يفيض إلا بمحبته . . فما أشد هذا فسقا . . ومع
ذلك كان مسلكه في أكسفورد نبيلاً ، مثالياً في الإثارة . .
فلا بد لي من محادثته ، حتى يرى الغي من الرشد . . . »

وسأل هج أن يتبعه إلى خارج المدينة . . وكان هج يتوقع
هذا الموقف . واستعد له . فلم ينكر شيئاً :

— نعم . . هذا صحيح . . وقد أحببت هارييت منذ أول يوم
رأيتها فيه بإدنبه . . فهل هذا ذنبى ؟ إننى لا أستطيع مقاومة
جمال النساء . . وهارييت رائعة الجمال ، ف وقعت في حبها لأول وهلة
— ليس هذا هو الحب ، ولكنه الاشتها . وهو غريزة
وضيعة . وليس هو تلك العاطفة الشريفة ، التي تفرق الإنسان
عن الحيوان . . الحب ؟ . . إن الحب يفرض نسيان الذات ،
والبحث عن هناء المحبوب . . وشعورك هذا ليس حباً بل أنانية !
— سمّه ما شئت . . إن هي إلا أسماء . . بل هو عاطفة

مروعة في جموحها ، وبودی لو قاومته ، لولا أننى وجدته لا يقهر
— ما من عاطفة إلا ويمكن قهرها ، وكبح جماحها .

والإرادة كفيلة بالظفر بها ، والتغلب عليها

وكان هج شاحباً منكسراً . . يبدو شقياً . فهو قد أحب
شلى ، وهو يعلم أنه مامن امرأة تساوى التضحية بمثل هذا الصديق
— إنى آسف لما حدث يا شلى . وأريد منكما أن تصفحا عنى

— إنى أمقت خطيئتك ، لا شخصك . وأرجو أن يحنى حين
من الدهر تنظر فيه إلى ذنبك الشنيع بمثل ما أنظر إليه من
الاشمئزاز . وعند ما يحين ذلك الحين تكون الكفارة . فالشعور
بالندم يمحو الذنوب . . .

وشعر شلى بالراحة ، إذ كبح هكذا جماح غضبه وغيرته ،
وإذ كشف لصاحبه عن طريق الخلاص ، وإذ كاد هو ينسى
الاعتداء

غير أن النساء دون ذلك تسامحاً . فعندما عاد شلى ، وأعلن
غفرانه للأثيم ، صاحت إليزا :

— ماذا ؟ أترغب في معاشرة هذا الرجل ؟ يا للسوء الرحيمة ! ..
وماذا يكون من أمر أعصاب هارييت المسكينة ؟ !
وفي اليوم التالى عاد هج من مكتبه فوجد البيت خالياً ،
ينعى من بناءه . . .

عندما هرب شللى والفتاتان من هج المنكود قرروا الذهاب إلى إقليم البحيرات . حيث يعيش شعراء أفذاذ من أمثال : « ساوثى » و « كولريديج » . واستأجروا كوخاً خلويّاً فى حوض الزهور . وجاءت مراسلات هج تدعو إلى اليأس منه ! ثم رسائل المعلمة مس هتشير « شقيقة الروح » التى أصبحت - بعد سقوط هج - النجية الوحيدة ، وموضع السر . . تسافر إليها من شللى كل يوم تقريباً صفحات رقيقة ، تضيف عليها هارييت دعوتها إياها للحاق بهما . .

ولما أخذت مسألة النقود تزداد كل يوم تخرجاً كتبوا إلى الدوق دى نورفولك ، فجاءتهم منه دعوة لقضاء آخر الأسبوع فى قصره وأتت زيارتهم له بأحسن النتائج . فإن المستر وستبروك عند ما علم بأن بنتيه قد قضتا بضعة أيام فى قصر دوق عظيم ، وأن زوج بنته قد وصل إلى ذلك القصر وليس فى جيبه إلا جنيه واحد ، نزل للزوجين الشايبين عن مئتين من الجنيهات معاشاً سنوياً ! ولم يستطع المستر تيموثى أن يبدو أشد منه بخلاً . فقرر أن يعيد إليه المئتين من الجنيهات فى السنة

وكان أهم ما فى الأمر عند شللى : أنه حصل على هذه

النتيجة المرضية ، دون أن يتنزل عن شيء من جانبه ، فكتب إلى والده أنه مع ذلك لا يمكنه أن يعد باخفاء آرائه في الشؤون الدينية أو السياسية . .

ولقي شلى الشاعر ساوئى الذى يعجب به ويحبه لأنه يربط فكرة الشعر بالحياة المجنحة المحلقة فى السماوات العلى ! . . فرأى الرجل يعيش فى بيت جميل ينبعث منه الدفء . غير أن زوجته أشبه بربة بيت مدبرة طاهية منها بالملهمة ! . . . كانت من قبل خياطة ، وهى لذلك تعجلد كتب زوجها بالقماش ! . . وكانت دواليب بياضاتها هى محراب نبوغها . . وكانت لا تتكلم إلا عن : النقود ، والطهى ، والخدم ، كأخف الزوجات ! . . أما الشاعر فكان من رأيه : أنه لا بد للمجتمع من التحول ، ولكن لا يمكن أن يحىء التحول طفرة ، بل تطوراً بطيئاً فخرج شلى من عنده غضبان أسفاً !

ولم يكن ساوئى ليشك فى الأثر السيء الذى أحدثه فى نفسه شلى . ففكر فيه : « يا له من ولد غريب . . إن أشد همومه راجع لمعرفته أنه وريث أملاك هائلة ، وهو جزع قلق من دخل ستة آلاف جنيه فى السنة ، كما كنت فى سنه جزعاً قلقاً من أننى لا أملك بنساً واحداً . . . أما ما خلا ذلك فهو يكاد يكون طينى . يزعم نفسه ملحدًا وما هو بملحد . إن هو إلا

مرض من أمراض الشباب أصابنا جميعاً ، ومرر بنا . . . وخيراً
فعل بمجيئه عندي ، أنا الطبيب المداوى . . وقد وضعت له علاجاً
بمطالعة فلسفة « بركلي Berkeley » التى ستهديه على رغمه ،
من حيث يدري ولا يدري . . والله يعيننا على جعل هذا السيد ،
الفتى ، شلى ، يدرك أنه يستطيع ، بجنياته الستة الآلاف ،
ضروباً عدة من الخير والبر . .

وهكذا التقت الفتوة اليافة بالسن الناضجة . وكانت
الثانية تقول للأولى : « ويا نفس جدى إن دهرك هازل ! . . »
ووجد شلى صدفة ، فى إحدى المجلات ، مقالا بقلم
الشاعر ساوثى ، يصف فيه جورج الثالث بأنه : « خير الملوك
الذين استووا ويستوون أبداً على عرش » . . كان ذلك تملقاً
مبتذلاً رخيصاً ، ولكن ساوثى كان يريد أن يصبح شاعر القصر
وطريق الوصول إلى آلاء الدولة طويل صعب المرتقى . . فلم
يغتفر شلى هذا النوع من الضمعة . فأخبر ساوثى بأنه ، من الآن
فصاعداً ، سينظر إليه كعبد أجير . . وقطع ما بينه وبينه . .
وصار لا يعنيه من أمره كثير ولا قليل

ثم اكتشف أن معبوده جودوين مؤلف « العدل السياسى »
حتى يرزق . . وعرف عنوانه فى لندن ، فكتب إليه . . كتب
إلى هذا الرجل العظيم الذى يحطم سلاسل الزواج ، وهو عدو

الألوهية ، وإمام الملحدین ، وهو جمهورى ، وثورى ! .. فعبّر عن إعجابه ، وتقديره ، وتفانيه . وأنه يرى فيه شعلة النور التى تضىء الظلمات الضاربة من حوله ويتمنى الاتصال به فلما تلقى جودوين هذه الرسالة سر كثيراً ، فهو بعد ما نبه ذكره عند نشره « العدل السياسى » عاد القهقرى إلى الحمول ، وكاد يصير مغموراً . . وهو أيضاً ، مثل تلميذه هذا ومريده ، قد اضطرب جبل حياته ، وبعد أن كان فى شبابه قسيساً انقلب فى سن الثلاثين ملحداً وجمهورياً . وفى ١٧٩٣ نشر كتابه المشهور . فكاد « پت » رئيس الدولة يشرفه باتخاذ الإجراءات القانونية ، لولا أن ثمن الكتاب كان عالياً — ستة جنيهات — مما رأى فيه الوزير ما يكفى لدرء غائلة هذه المبادئ الهدامة . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج جودوين من « مارى وولستونكرافت » ، الأديبة النابهة . ثم ماتت وهى تضع بنتاً . فتزوج بأرملة تدعى « مسز كليرمون »

وصارت حياة جودوين مؤلة ، فقد كان لمسز كليرمون من قبل بنت وولد هما « جين » و « شارل » ، ثم ولدت من جودوين طفلها « وليم » ، أما مارى وولستونكرافت فقد تركت له بنته « مارى » ، وفتاة من زواجها الأول هى « فانى » ولكى يطعم جودوين كل هذه الأفواه عمل على نشر

كتب للأطفال ، وتولت زوجته إدارة المكتبة . وكانت حياته قاسية محزنة ، محرومة من مسرات الغرور . فتلقى رسالة شللى بحماس ، وفى رده على رسالته سأله المزيد من التفاصيل عن شخصه . . فبعث إليه شللى بخلاصة حياته ، حاملاً على والده « مستر تيموثى » ، وعميد أكسفورد « الدكتور كيت » . . وقال إنه وريث دخل يقدر بستة آلاف جنيه فى السنة ، وإنه تزوج من فتاة تشاركه أفكاره ، وقد نشر : قصتين ، وكتيباً فى الإلحاد ، سيرسلها كلها إلى أستاذه . . .

وأثر هذا الخطاب فى فتيات تلك الأسرة ، وقرأنه جميعاً باهتمام عظيم . . وإن كان أبوهن لم يرقه تحامل الابن على أبيه ، فلعل أباه لم يرد له أبداً إلا الخير . . ولا يجوز للمرأة الإسراف فى الحكم وهو فى ريق العمر ، ثم لا يجوز له خاصة التهور فى نشر أحكامه . .

وكتب جودوين إلى شللى أنه : « فى السن التى ينبغى أن يكون المرء فيها تلميذاً ، لماذا يتهالك على نفسه ليكون أستاذاً ؟ » ولولا أنه جودوين الموقر كاتب هذه الرسالة لسلكه شللى فى عداد أنصار التعصب المأجورين ! . . ولكنه انحنى بارتياح ورد عليه : « إني لا أسأل إلا أن أكون تلميذاً للكفاية العليا التى لا نزاع فيها »

وراح شلى بينى العلالى والقصور ، يضم النفوس
الأخرى الموعودة إلى حلقته الروحية . . أو لم يوفق فى الجمع
بين هارييت وإليزا ؟ . . إذن فليس أسهل من استئجار فيلا
شاحنة فى بلاد الغال ، يعيش تحت سقفها معهم : مس هتشير
« شقيقة روحه » ، وجودوين « صديقه الموقر » ، وأسرة هذا
الصديق الجميلة ! . .

ولأنه رأى تشكك أستاذه فيه أراد أن يبرهن بمثل رائع
على أنه يستطيع شيئاً ، رغم سنه الباكرة . . فقبل أن يسكن
« بيت التأملات » سيذهب لقضاء بضعة أشهر فى إيرلندا ، مع
هارييت وإليزا ، ليعملوا على تحرير الكاثوليك الإيرلنديين
من تعصب مواطنيهم ، وتحسين مصير تلك البلاد المنحوسة

— ١٣ —

الفارس المغوار ، الذى جاء يحرر العبيد من الذل الروحي ،
والحرمان المادى ، قد رجمه هؤلاء العبيد بالطوب ! . . ففى
اجتماع للكاثوليك صفروا استهزاء ، إذ أعلن أن إبعاد الإيرلنديين
من المناصب العامة بسبب دينهم خطأ غير جائز ، لأن الأديان
سواء . . . فأثروا تعصب مضطهديهم على تشككه وإلحاده ! .
وكانت نشرته « خطاب إلى الإيرلنديين » التى وجهها من

قبل إليهم على مثل هذه النعمة . فهو يدلل على أن تحرير الكاثوليك يعد خطوة في سبيل التحرر العام المطلق ، وأن الطيبة ، لا البراعة ، هي التي يجب أن تكون مبدأ كل سياسة . . وأخيراً ، ينبغي للإيرلنديين — قبل أن ينتظروا تحررهم من الإنجليز — أن يحرروا ذات أنفسهم من مساوئهم ، بأن يكونوا : معتدلين ، عادلين ، محسنين . وجرى في أوهام شللى أن تعاليمه هذه ستصل مباشرة إلى صميم قلوب فقراء « دبلن » ! . . وأعد نفسه للاستشهاد في سبيل هذا الإنجيل ! . .

ولم تكن هارييت دونه حماسة . فكانا يتجولان في شارع ساكفيل وجيوبهما محشوة بالنشرات . فإذا ما توسما في أحد « علامة القبول » دسا في يده منشوراً ! . وكانا من شرفة مسكنهما الصغير يلقيان بهذه النشرات إلى المارة ! .

وكان جودوين ومس هتشنر يتوقعان كل يوم القبض عليه . ولكن ممثلى التاج في العاصمة الإيرلندية لم تزعجهم خطبه ولا منشوراته

وكان قلب شللى يتمزق إذ يرى رجال البوليس يجرّون السكارى في الطرقات . . ولما رأت هارييت أنهم يشربون الويسكى لأن اللحم غال جداً أضربا عن أكل اللحم ، وأصبحا من النباتيين !

وفي ليلة من ليالى الأعياد، التى تشرب فيها دبلن الخمر غير مزوجة بالماء ، رأى شلى وهارييت مواكب الجائعين ، واقفين صفوفاً ، يتفرجون على حفلة راقصة فى قصر الحكومة ، وهم يعجبون بالملابس الزاهية والحلى الغالية . . فسخط شلى ، وقنط من هذا النقص فى الإحساس بالكرامة . .

كانت إيرلندا الجائعة عنده شبيهة بامرأة جميلة معذبة . . وهو مستعد للنضال فى سبيلها ، ومعاناة العذاب من أجلها ! . . فسارت وراءه فى الطرقات جماهير زرية الهیئة ، مهلهلة الثياب . فقبض عليه الجنود ، وجلدوه . وكأن فلسفته الروحانية الرحيمة هذه قد وفقت بين الأمتين المتعادييتين . . فرأى أن الجزيرة الشقية تضحك راضية بشقائها ! . فإذا يسعه إزاء هذا ؟ وماذا يرجو ؟ . . لقد سأل جودوين رأيه ، فنصحه بالعودة تجنباً لإراقة الدماء . . إذ لم يؤن الأوان بعد لتحقيق مشروع شامل كامل لخير الإنسانية جمعاء ! . . فرضخ آخر الأمر لحكم « صديقه الموقر » وكرروا الدعوة إلى المعلمة مس هتشنر لتجىء فتسكن معهم . فتباهت بالدعوة ، وحدثت البلدة عنها . . فلما عرف أبوها نهرها ، وحال دون سفرها ، فدهش شلى مرة أخرى من شرور الناس . . أهو ، الذى خطف امرأته وتزوج بها زواج حب ، يجىء الآن فيخونها ؟ لقد اشمأز من هذه الفكرة

الحسيسة ، واستنكف أن تدور في رؤوس البشر ! ..
 وكان المستر هتشنر - الأب - هو أيضاً صاحب حان
 سابق ! .. فكأن « الآلهة » قد أرادت أن تحشد في حياة شللى
 الشاعر الشفاف : نقابة الخمارين ! ..

ثم آن لشللى أن يغادر بلاد الغال ، وأشار عليه جودوين
 ببيت صغير لم يعجبه ، ولكنه اكتشف قرية سحرية راقدة في
 أحضان الزهور والأغصان ، حمراء السقوف ، تسمى :
 « لينموث » .. وعثر فيها على بيت للإيجار ، تشرف نوافذه
 على البحر .. فاعتزم سكناه « مدى الحياة » ! ..

ولم يلبث بيت « لينموث » الجميل أن تأهب ، واستعد
 لحادث سعيد ، هو وصول مس هتشنر ، فقد ارتضت أخيراً أن
 تجيء للسكنى معهم ، لتدخل في حياة شللى لوناً من التعاون
 الفكرى ، والتآزر الروحى ، لا يجده في زوجته الفتية ، التى هى
 أيضاً فى حاجة إلى أن تتلقن من « أختها فى الروح » هذه ثقافة
 تكونها !

ولم يلبث أهل « لينموث » أن رأوا ، مندeshين ، صاحبهم
 شللى يقوم ، مع تلك العجفاء الهزيلة المجهولة ، بنزهات خلوية ،
 طويلة !

- ١٤ -

ذبلت ورود القرية الجميلة .. وهبت رياح الخريف ، ورأى شلى أن حلمه يتبدد ، ورؤياه تتبخر ، وتكشفت له مس هتشنر عما كان خافياً عليه من غليظ الطباع .. ففقد فيها بطلته و « شقيقة روحه » .. فقرر سن الندم !

وبعد كل الذى كان منه من إلحاح وإلحاف لخلعها من مدرستها صار من الصعب الاقتراق عنها وردّها على أعقابها .. بيد أن المقام كذلك معها أصبح ثقيلاً لا يطاق .. واستحث جودوين شلى وأسرته على الرجوع إلى لندن .. فقررُوا السفر إليها ، والبقاء فيها طويلاً

و ذات يوم من أكتوبر ١٨١٢ زار شلى وهارييت لأول مرة جودوين وأسرته .. وعند ما وصلا وجدا الأسرة بكاملها مجمعة فى البيت الصغير المتصل بمكتبة شارع سكنر . وكان آل جودوين نافدى الصبر تطالعاً لوصول الزوجين الشابين . فهناك الفيلسوف « الصديق الموقر » جودوين : قصير ، سمين ، أصلع ، يتجلى ذكاؤه ، كما لو كان قساً . ثم مسز جودوين ، فى ثوب جميل من حرير أسود ، ونظارات خضراء ، لترى جلياً هذا الولد النبيل ، وارث اللوردية ، وزوج الفتاة الحسنة .. وكان

شلى قد أنذر ، من قبل ، بأنها امرأة سليطة اللسان . ولكنها بدت فى ذلك المساء رقيقة الحاشية . ثم « فانى » الفتاة الساهمة فى شجن وحلاوة . ثم « جين » الشائقة ذات الطابع الإيطالى ، سمراء اللون ، يقظة الدهن . . . وقال جودوين :

— لا ينقص الأسرة إلا ابنتى « مارى » ، وهى الآن فى أسكتلندا . وهى أشبه ما تكون بأُمها التى ستريان الآن صورتها وقادهما إلى مكتبه . . ونظر شلى باهتمام وتأثر إلى صورة الفاتنة مارى ولستونكرافت . ثم طفق شلى وجودوين يتحدثان فى : المادة والروح ، والأدب الألمانى ... والنساء يسمعن معجبات . ورأت هاريت شهاً بين جودوين وسقراط ، وإلى جانبه شلى كأنه أحد مريدى ذلك الفيلسوف الأغرقي القديم ! ونشأت مودة وثيقة بين آل شلى وآل جودوين . وكثيراً ما كان جودوين يمر بالفندق ، ويصحب شلى فى نزهة ، أو تدعو مسز جودوين شلى وهاريت إلى العشاء ، وقد تدعو معهما إليز ومس هتشنر ، وقد تجاوزف هاريت ، من جانبها فتدعوهم ، هى أيضاً ، إلى العشاء !

وفى مساء عيد ٥ نوفمبر كان شلى وزوجه يتعشيان عند جودوين . وبعد العشاء استأذن الصغير « وليم جودوين » ، وكان فى التاسعة من عمره ، ليذهب إلى جاره الصبى « نيوتن »

ليشعلا الصواريخ . وكان شلى فى تلك اللحظة يناقش « صديقه
الموكر » فى إحدى المسائل العويصة ، فأيقظت كلمة « صواريخ »
الكيماوى الخفى فيه ، فقال للصبي الصغير : « إني ذاهب معك »
وبعد ما انتهت الصواريخ دعاه الصبي نيوتن إلى والديه .
فانساق معه شلى فوجدهما مدهشين . ولم تلبث أن جرت
محادثة علمية شائقة بينه وبين المستر نيوتن . وهو رجل له
نظرياتة التى يطبقها عملياً . وكان متحمساً لفكرة : « أن
المخلوقات البشرية ، عند ما غادرت المناطق الاستوائية الحارة ،
التى عاشت فيها بادئ ذى بدء ، وصعدت نحو الشمال ،
اتخذت عادات مخالفة للطبيعة ، هى التى سببت كل أوجاع
الإنسانية . ومن هذه العادات السيئة لبس الثياب ! » . ولذلك
كان أبناؤه يروحون ويحيئون فى البيت وهم دائماً عرايا ! ..
وكذلك كان من العادات السيئة عنده أكل اللحم ، وأسرته كلها
نباتية تعيش على الخضر والفاكهة . ومنذ راعت هذا النظام فى
معيشتها لم تلجأ إلى طبيب ، ولم تحتاج إلى دواء .. وكثيراً ما كان
شلى يلقى البنات الصغيرات عاريات الأجسام ، يصلحن نماذج
كاملة لصنع التماثيل .. وما كان هذا كله إلا ليفتن شلى ،
ويجعله من الزوار المواظبين ، فلا يكاد يحضر حتى يخف
الخمس الأحداث متسابقين إلى لقائه ، ولم يكن نجاحه لدى

أمهم وخالتهم مدام دى بوانفيل دون ذلك . . .
 وفى أسرة جودوين كانت « فانى » و « جين » تقضيان
 السهرات الطويلة تصغيان إليه بانجذاب ، فى إعجاب بجماله ،
 وبقوة حجته . . وصار له فى هذه الأسرة نفوذ لا يطاقول .
 وكان يقضى بين « فانى » الناعمة الخجول و « جين » المتوقدة
 الحارة الدماء أجمل سهراته ، يمتزج فيها الفكر بالاشتهاء .
 وكأتما عاد مرة أخرى إلى الليالى الجميلة ، التى كان فيها محوطاً
 بالأخوات وبنات الأعمام والعمات ، كما يحيط النحل بالقفير ...
 أما هارييت فقد كانت عندهن دونه نجاحاً . ولم تلبث
 فانى وجين أن حكمتا بأنها فتاة محدودة ، وقالتا « مسكين شلى
 العزيز ! . . فليست له الزوجة التى تنبغى . . . »

وهو شعور طبيعى يخالج الفتيات إزاء الرجل الذى هو ملك
 غيرهن وكن يتمنينه لأنفسهن . بل لقد أشعرنه يوماً ، بأساوب
 ونخز الإبر ، أنهن لا يرين فيها إلا « سيدة جميلة » وحسب . .
 فاستنكر ذلك منهن . غير أن ونخز الإبر سيدى قلب شلى مع
 الأيام ، وينبه ذهنه إلى أشياء لم يكن يلقى بالا إليها !

بعد ما ظل هج منفياً عاماً كاملاً فى يورك اصطالح مع

أهله ، وعاد إلى لندن ، لإتمام دراسة القانون . وبينما كان يقرأ بهدوء ، ذات مساء ، فتح باب الغرفة ، فإذا شلى ، بلا قبعة ، وصدر قميصه مفتوح ، وحشى المنظر ، نورانى التجلى ، أشبه بما كان دائماً : روحاً سماوياً علوياً ، نزل إلى هذه الأرض عفواً أو خطأ

— أخذت عنوانك من أستاذك المحامى .. بعد لأى ! .. ماذا فعلت طوال هذه السنة ؟ .. إننى عائد من إيرلندا ، حيث عملت مستشاراً عن الإنسانية لدى الكاثوليك الإيرلنديين ! .. ثم قصدنا بلاد الغال البديعة .. هاريمت بخير .. وهى تتوقع ولداً .. هل قرأت « بركلى » ؟ .. إنى فى هذه الآونة أطالع « هلفتيوس » .. حصيف .. ولكنه جاف !

فجعل هج يتأمله بالإعجاب الخنون الساخر ، كما كان يفعل من قبل .. ليس غير شلى الذى يذكر الفيلسوف الفرنسى « هلفتيوس » منذ أول عبارة يوجهها إلى صديق غادره منذ عام ، بعد كل ما كان بينهما من خصومة جارحة وكان شلى سعيداً ، مندفعاً بفيض أفكاره ، يفتح الكتب ، ويوجه الأسئلة دون أن ينتظر جواباً عليها ، وكأنما قد نسى تماماً أن هج قد أراد يوماً أن يثلم عرضه ! .. وظل يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل .. وعند انصرافه قال لهج :

— أرجو أن تجيء غداً للعشاء معنا ، فسوف تسر
 هاريت برؤيتك .. واعذرنا لوجود مخلوقة كريهة معنا : مس
 هتشنر .. ولكنها راحلة عنا بعد يومين !

— مس هتشنر ؟ .. شقيقة روحك ؟ ..

— هي ! .. شقيقة روحي ! .. إنها دودة حقيرة تسعى !
 إننا نسميها « الشيطان الأسمر ! .. »

وجاء هج ، فاستقبلته هاريت مغتبطة . وقد زاد ورد محياها
 نضرة ، وصارت أوفر شباباً وفتنة ، وصاحت :

— ياله من فراق ! .. ولكن لن نفترق بعد اليوم ، فقد
 جئنا للإقامة في لندن مدى العمر ..

وكانت إليزا جالسة في ركن ، صامته ، مترفعة . فصافحت
 هج بأطراف أصابعها ، دون أن تنزل إلى مخاطبتها
 فقال هج في نفسه : « لم يتغير بعد شيء في هذا البيت ..
 فلا بد من أن ألزم فيه الحذر »

وفي تلك اللحظة دخل شللي بان دفاع القديفة . وبسطت
 مائدة العشاء . وبعد تناول الطعام همست إليزا أشياء في أذن
 هاريت ، فودعت هج ، ودعته للعودة صباح الأحد :
 — سيكون ذلك يوم سفر « الشيطان الأسمر » ، ويكون
 الحديث محرراً . وأنت مرح ، فوجودك يؤدي لنا خدمة .

إنها امرأة فظيعة ، أرادت شلى على أن يتعلق بها . وادعت أنه يحبها فعلاً .. وزعمت أنني لا أصلح إلا لخدمة البيت .. وقد وعدا شلى بمئة جنيه معاشاً سنوياً ، على شرط أن تذهب عنا إلى حيث ألفت ! ..

وكان شلى يدرك جسامه التضحية برقع دخله على هذه الصورة . ولكن لا بد مما ليس منه بد . فهذه الفتاة قد أضاعت بسببه وظيفتها ، قال :

— الواقع أنها مخلوقة شنيعة ، وما دهشت قط من سقم ذوقى إلا بعد ما قضيت أربعة أشهر معها .. والأدهى من ذلك أنها تنظم شعراً ! .. وضعت مراثاة فى حقوق المرأة ، بدأتها بقولها :
« الكل ، الكل رجال .. والنساء كالأخرين ... »
ثم انفجر ضاحكاً ..

وفى صباح الأحد جاء هج حسب وعده . وبدت له مس هتشنر مضجرة ، ولكنها غير مؤذية .. وخرج شلى .. واكتشفت هارييت فى رأسها صدادعاً شديداً يقتضى الوحدة . وحكم على هج أن يخرج ليتنزه مع « الإليزاتين » ! .. وساروا نحو حديقة سان جيمس

وقصرت مس هتشنر حديثها على هج . وناقشته فى حقوق المرأة . ولزمت إليزا الصمت .. وعندما وصلوا إلى البيت قالت لهج :

— كيف استطعت أن تتحدث طوال هذا الوقت مع هذه المرأة الشريرة ؟ . . . ولماذا شجعته على المضي في حديثها ؟ . إن هارييت عند ما تعلم بالأمر ستغضب منك ، وتستاء كثيراً ! وبعد الغداء وجه هذا الرجل الحبيث الحديث إلى حقوق المرأة ، وأطلق البطلة المسترجلة من عقالها . فوقف شلى إلى جانبها يناقش بحدة . ونظرت إليه الشقيقتان بحزن وجزع ، كما لو كان مذنباً أثماً لاتصاله بالعدو .. وهمست إليزا في أذن هج : — آه ، لو علمت كم هي قدرة لما دنوت منها ! . . .

غير أن ساعة الخلاص جاءت ، فحملوها وصناديقها على عربة إلى منفاهها !

— ١٦ —

كانت الشهور القليلة التي تلت رحيل مس هتشر من شهور السعادة . وكان شلى وزوجه ما زالا فقيرين ، جوائى آفاق ، ولكن رضاء داخلياً عظيماً قد حل عندهما محل الغنى والبيت والحمى . . . فقد بدأ شلى نظم ملحمة كبرى بعنوان « Queen Map » . وجعله العمل فيها يستشعر أن الحياة ما زالت خليقة بأن يحياها الإنسان . وكانت هارييت حاملاً . وغمرها استرخاء لذيذ ، شبيه بالخدَر ، جعلها تستبقي كل قواها لعملية

الخلق ، ولا تشعر بالضجر لجمود حركتها ، مادام في باطنها ، يعزينا ، نشاطُ التكوين ، الذي لا يلبث أن يتمخض بالولد وأقاما خلال هذا الطور مدداً قصيرة في بلاد الغال وفي إيرلندا . وبدأت هارييت تدرس اللاتينية ، مرضاة لزوجها . وكان يدرسها لها على طريقته ، بلا أجرومية ، ماضياً بها رأساً في مطالعة « هوراس » و « فرجيل » . . . وكان في خلال ذلك أيضاً ينظم ملحمة ، أو يقرأ كتب التاريخ . فقد قال له جودوين إن جهله بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائه في الحكم على الأشياء . وفي المساء تغنى هارييت ، أو يطلعان معاً الصحف ، ويتبعان أخبار المحكوم عليهم من الكتاب الأحرار الذين كان شلى يكتب إليهم ، دون أن يعرفهم ، يعرض عليهم أن يدفع عنهم الغرامات المحكوم بها عليهم بسبب آرائهم ، وكان لذلك يستدين بأرباح فاحشة ، تبلغ أحياناً أربعمئة في المئة !

وأتت العودة إلى لندن ، إذ حان وضع هارييت ، وكذلك بلوغ شلى سن الحادية والعشرين ، وهو تاريخ غاية في الأهمية بالنسبة له ، إذ يحدد علاقاته بأبيه

وسكننا فندق كوك ، في غرفة ذات شرفة مطلّة على شارع البمارل . وكانت إليزا تغنى بشقيقتها وتدرس لأختها سياسة الزوجية : — من عجب ألا يستطيع زوجك أن يجد سبيلاً إلى الصلح

مع أبيه ، حتى تستقبلك أسرته ، وتأخذى فى أسباب الحياة
 اللائقة بقريئة « البارون » الشاب ! . . . ولو أنك كنت أكثر مما
 أنت فطنة وإقناعاً لكان لك شأن آخر ! . وأنت لا تلبثين أن
 تنجى ولدأ . وهذه الحياة المزعومة أصبحت مستحيلة لا تطاق ،
 فلا غنى لك عن بيت فى لندن ، فراشه وثير ، وخيره كثير ،
 وأوانيه من فضة ، وبالباب مركبتك . . هذا كله وأكثر منه
 يمكن أن يكون لو أراد شلى . . .

وتأثرت هارييت بهذه الأقوال ، وآمنت . فقد كانت امرأة
 ساحرة الجمال ، وكانت تعرف ذلك ، والمرأة الحميلة تعد الحياة
 بلا ترف صعبة لا تحتمل ، كما يعد الرجل الذكى نفسه مغبوناً
 فى وظيفة حقيرة . . . وكانت نظرات المارة التى تتعلق بها
 تحدثها عن مدى سلطانها . وكانت تعلم جيداً أن هذا السلطان
 سريع الزوال ، ينقضى بانقضاء الشباب والجمال . . ومثل الأمة
 المسلحة تسليحاً قوياً ، تريد أن تكفل لنفسها مكانتها تحت
 الشمس ، قبلما تسرح جيوشها : مثل المرأة المسلحة بجمالها ،
 تريد أن تغزو عدوها الرجل ، أو توطد علاقاتها به ، قبلما
 تدممها الشيخوخة . وظلت هارييت ، ومن ورائها إليزا تنفخ فيها
 من روح التمرد والتمرم ، تلح على شلى ، حتى قرر محاولة
 التقرب ، من جديد ، من أبيه . وكان كذلك فى شوق لرؤية

أمه ، فكتب إلى والده يعترف بجماعاته ، ويرجو أن تعود الصلات بينهما بثقة تامة ، ولم ينس أن يضمن رسالته تحيات قريته .
فاشترط أبوه لذلك أن يكتب شلى إلى جامعة أكسفورد أسفاً لحدوث ما حدث منه ويعدها بأن يكون باراً بالكنيسة فاشتكى شلى والده إلى الدوق دى نورفولك . ولكن إليزا عدت هذا العناد منه سخيلاً :

— وعلى ذلك فإن هارييت ، وهى تكاد تضع ، لا تجد حتى مركبة توفر عليها الجرى فى شوارع لندن على القدمين ؟ . . .
فاستشاط شلى غيظاً ، واشترى عربة بالدين ، وأبى استخدامها ، فقد كان يؤثر النزاهات الطويلة مشياً فى شوارع لندن يتحدث مع هج . . وكان عندما يضيق بإليزا يلجأ إلى بيت جودوين حيث « فاني » و « جين » تستقبلانه بأذرع مفتوحة ، أو بيت نيوتن حيث الحنان والذكاء والرقّة وحسن المعاشرة ، تسمعه مسرّ نيوتن أنغامها الشجية على البيانو ، وهو جالس على البساط مع أولادها الذين زهاهم الحسن ، يروى لهم حكايات الأطياف والأشباح . وتجيء أختها مدام دى بوانفيل ، وكان شلى يميل إليها ، فقد اجتمعت فيها وأختها استنارة الذهن ودمائة الطبع ، وهذا فى المرأة خلاصة الحضارة . . ومن ثم وجد فى بيتها أقصى ما يتمناه من هناء الروح . وكانتا

تقولان عنه : « أى شىء أبدع وأروع من قديس فى ثياب رجل
المجتمع الراقى ؟ ! »

وكان هج يغبط صديقه شلى على مناورات كل هؤلاء
النسوة الفاتنات الذكيات من حوله ، وانكباهن هكذا عليه ،
وإحاطتهن به ، ينازعن فيه فتيات جودوين ، ويزاحمنه عليه !
وقد يمضى الليل وشلى يتحدث بحمية ، وكأنما هو الإله
الجميل « أدونيس » ، المحوط بالعدارى المسحورات ، والكاهنات
العابدات ، والنساء الفاتنات . . وقد يطالع الفجر عليه وهو
ما زال يحاورهن . . ولا ينتهى الحوار بالنوم ، بل ينتهى هذا
الحديث فى الليل بنزهة خلوية ، تحت ندى الصباح . . .

وكان هج يتساءل : ماذا كان يقول طوال ليله فى نادى
الجمال ؟ . . إن شلى نفسه ليس يدري ! .

وكذلك كانت هارييت تتساءل عما يمكن أن يقوله زوجها
لكل هؤلاء النساء . . وكانت على وشك الوضع ، فهى لا تخرج
مطلقاً . .

وضعت هارييت طفلة ذات عينين زرقاوين وشعر من
ذهب . فدعاها أبوها « إيانثا : Iantha » ، تكريماً لذكرى

«أوفيد» شاعر اللاتين القديم . وأضافت أمها إلى الاسم :
«إليزا» ، تكريماً لأختها

وكان شللى يدور بالطفلة على ذراعيه ، وهو يهزها ، ويغنى لها من أشعاره ! وكان قد طاب نفساً ، وقرّ عيناً . بأن يربى مخلوقاً جديداً على مبادئه ، فينقذه ، منذ نعومة أظفاره ، من الأحكام المتسرة والتعصب . وكان — وهو المعجب بجان چاك روسو — يظن أن هارييت سترضع بنفسها طفلها . بيد أن هارييت ، وأختها من ورأها تحرّضها ، قد رفضت إرضاع بنتها . فاكترت مرضعاً لتتولى ذلك عنها ، وتغيرت الأم ، على وجه غريب ، منذ مولد «إيانا» . فانقطعت عن دراسة اللاتينية . . ولم تعد ترغب فى غير التنزه والوقوف أمام واجهات الأزياء والجواهر . . وكان شللى لا يغتفر مثل هذا التهافت . وكان على استعداد ليدفع تكاليف كل النزوات «المعقولة» لامراته ، أما المال «الضرورى جداً !» لإعانة الكتاب الأحرار المضطهدين ، وغير ذلك من الوجوه الحقة ، فإن إنفاقه فى خرق ثياب وشرائط برانيط أمر أشد ما يكون خزيّاً !

وعندئذ عنيت إليزا بتفسير مشاعر شللى لهارييت :

— إن زوجك يجد المال ليدفع ديون صاحبه جودوين الذى تستقبلنا زوجته شر استقبال . . ثم يجد المال ليدفع غرامات كل

كويتب « صعلوك » . . ولكنه لا يجد مالا لتلبس امرأته ثوباً على جسمها ، وقبعة على رأسها ! . . وإذا كنت لا تلبسين الآن وتظهرين ، فى الثامنة عشرة ، فتى تفعلين ؟ . .

وشجعت إليزا على التردد على البيت ضابطاً فى الجيش يدعى : « الكابتن ريان » ، تعرفوا به فى إيرلندا ، وكان يرى أن شابة شائقة مثل هارييت جديرة بحياة مترفة . وكانت هارييت مستعدة للمصادقة على رأيه . ترى أنها ، إذ تتردد على محال البيع والشراء ، تلبى ميلها وطبعها ، كما يلبي شلى أهواءه بالمكث الطويل فى بيت « نيوتن — بوانفيل » !

ورأى شلى أن المقام فى لندن كان سبب الشر كله . فخالجته الفكرة التى تعرض عادة للمحبين إذا ما عكر صفوهم شىء ما زال غامضاً ، وهى زيارة الأماكن التى شهدت ذروة الحب . . وأعدت مركبة هارييت . . وستلف شلى خمسمئة جنيه بتوقيع سند بألفين من الجنيهات تستحق الدفع من ميراثه . وسار الركب يحج إلى إدنبره ، وإليزا — التى لا مفر منها — على رأسه وعادوا أسعد مما سافروا . ولكن لم تكد تستقر بهم النوى ، حتى أصرت هارييت وإليزا على شقة جميلة ، وثياب فاخرة ، ومجتمعات راقية ! . . وشلى يمقت هذه جميعاً ، ويمقت ، أكثر منها ، فكرة تعلق زوجته بها . . إنه ما زال يحبها ، غير أن سماء

حبه قد عبرتها لمحات احتقار ، كومضات برق سريع خلّبت !
 وجاء هج لزيارتهم . فوجد هارييت أشد فتنة ونضرة .
 ولكنها لم تكن تعرض عليه أن تطالع له في كتب الفضيلة ، بل
 سألته أن يصحبها إلى صانعة قبعات ذائعة الصيت . . وهناك
 اختفت عندها ، تاركة هج ينتظر على الرصيف . فرأى أنها
 بدأت تكون مملّة ، فضاق بها . . ولم يخف ضيقه بها عن شلى ،
 الذى كان كذلك قد عيل صبره !
 وهكذا وصل الزوجان إلى منزل خطر !

* * *

عندما دعت مدام دى بوانفيل شلى وهج لقضاء بضعة
 أيام في بيتها الخاوى في « براكنل » لبيا بابتهاج . وهناك وجدنا بنتها
 « كورنيليا » ، الفتاة الجذابة ، المثقفة ، الحزينة . . كما وجدنا
 أختها « مسز نيوتن » . . وأخذت كورنيليا تعطيهما دروسا في
 اللغة الإيطالية . . وكانت أمها تفسر بصوتها النقي تعاليم
 الفلاسفة الفرنسيين السمحة ، وتردد كلمة « شمنفور » :
 « أن تستمتع بالحياة ، وأن تمتع بها سواك ، دون أن تسىء إلى
 إنسان ، هذا هو الخلق المصنّف ! » . . وكانت هذه الكلمة
 خليقة بأن تثير استنكار شلى . . فالمسكينة هارييت لم تقل قط
 شيئا مخالفاً إلى هذا الحد للفضيلة

وكان من عادة كورنيليا أن تردد كل صباح أنشودة من أناشيد « بترارك » . . فإذا ما خرجت لتتمشى بين الشابين في الحديقة علّقت على نصوص الحب ، بفصاحة ، وبساطة ، قائلة :
 — ما أحسن أن يُستهل النهار بجرعة من الحنان ، تلطف
 كافة أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، حتى يجيء الليل ! . .
 وطاب مقام شللى في هذا البيت البسيط البهيج ، ودعيت
 هارييت ، واستقبلتها مدام دى بوانفيل بعطف . وقالت لهج :
 — إنها إنسانة جميلة جداً ، وقد تلوح لى طائشة نوعاً ما ،
 غير كفء لمثل عزيزنا الفيلسوف اللذيد . . ولكن . . أليست
 فى الثامنة عشرة تماماً ؟ . .

وأحست هارييت بأنهم لا يعاملونها معاملة الند للند . ورأت
 كيف يروق شللى أن يقرأ « بترارك » مع كورنيليا أكثر مما
 تروقه المناقشة مع زوجته فى وسائل تحسين معيشتهم . فأُسرفت
 فى المرح ، وعدم الاكتراث . ولما طففت الجماعة تجادل فى
 الفضيلة جدالاً حاراً رآها شللى تتبادل البسمات الساخرة مع
 هج ، ومع بيكوك ، وهو صاحب جديد لهم ، سفسطائى متشكك .
 وما كان شللى ، إذا تسامح فى تهكم هج ، ليتسامح فى تهكم
 امرأته . فوجم وحزن . . وعزا ذلك منها إلى الصبىانية . . وكانت
 غيرى من كورنيليا . فأبدى لها شللى فتوراً ، وعاملها بازدراء !

وعندئذ تسلحت بالكبرياء ، وانقلبت شراً مما كانت .
وقالت لنفسها : « إن إليزا على صواب . . فهو أنا ، يدعى
الكمال . . لأنه يحب هذه العيشة الكثيرة والمناقشات البليدة يريد
أن أحبها ؟ .. بأى حق يحول بينى وبين أن أستمع بحياتى ؟ وفيم
تمتاز عنى كورنيليا ، إذ تطالع له « بترارك » ؟ ! . إن هؤلاء
النسوة ، اللواتى يعجب بهن ، لسن فى نضرة شبابى ، ولا فى جمال صورتى »
وأعلنت عزمها على العودة إلى لندن ، شوقاً إلى أختها إليزا . .
فلم يلحوا عليها بالبقاء . . وقالت نساء بوانفيل ما قالت من قبل
أنسات جودوين : « إن شلى المسكين ، ليست له المرأة الجديرة به » !
وتعدت هارييت أن تتركه فى « براكنل » . وتعيش فى لندن
مع إليزا . . ولم يلبث شلى أن أخبره « الأصدقاء الخالصاء » بأن
هارييت كثيراً ما تشاهد بصحبة الماچور ريان . ولأول مرة ،
منذ زواجه ، لاح له أن الخيانة شىء محتمل الوقوع بالنسبة
لشخصه وشخص هارييت ، وطغى عليه عذاب أليم !
وكان العقل ينصحه بالخلاص من امرأة عادية جداً .
بدت نغمتها الوضيعة بما أظهرت من سخرية به ، وإذا لم يكن بعد
يحبها ، أو ليس الفراق هو أبسط الحلول ؟ أو لم يكن من رأيه
دائماً : أنه فى اليوم الذى ينطفئ فيه الحب يسترد كل من
الزوجين حرية ؟ .

غير أنه اكتشف أن هارييت وستبروك ، وپرسى شلى ،
لم يعودا مخلوقين منفصلين حرين . فإن ما كان بينهما من
ذكریات ومن متاعب وآلام ، قد ربطهما برباط خفي
فهرع إلى لندن يقدم إليها اعتذاراته ، ويعترف بأخطائه .
ولكنها تلقته بخشونة وسخرية ، فاستحالت بينهما كل مطارحة قلبية !
ومرت بشلى لحظات رأى فيها ، من وراء قناع الجفاء
والكبرياء الذى تقنعت به هارييت ، صورة سريعة عابرة من
هارييت السابقة ! . فراح يهيم على وجهه مفكراً : « كم كنت
مجنوناً ! .. فقد ربطت نفسى للأبد بامرأة لا تحبني ، وهى لم
تحبني قط من قبل . إنها لم تتزوجني إلا طمعاً فى ثروتي واسمى ..
أما وقد رأت أن آمالها خابت فقد انقلبت تعاقبني على غلطها ،
وتنال مني .. » .. وكرر لنفسه باشمئزاز : « قلب من ثلج ...
لوح من ثلج ! .. »

لو أنه لقيها وحدها لأذاب ثلجها ، ورد إليها حرارة قلبها .
ولكن إليزا كانت واقفة دائماً بينهما ، والماجور ريان ، الكيس
الكریم ، مستعد لأن يرق حيث يقسو الزوج !

فلما رأى شلى أن هارييت ممعنة فى صلابتها وعنادها سقط
فى يده ، وكتب إلى أصحابه فى براكنل يعلن حضوره لقضاء
شهر عندهم من دونها .. وكان يعلم أن هذه الفترة الممتعة

ستعقبها نكبة قارعة ، لا بد واقعة . . ولكنه كان من الضنى
والكلال بحيث ألقى السلاح !

— ١٨ —

وتمر أيام على شلى ، يتذكر فيها الحياءَ الطفل الجميل ،
الذى وهبه الله لزوجته ، فحاول ، فى قصيدة حزينة تثير
الشجون ، أن يطلعها على مبلغ شقاوة ذاك الذى عاش تحت
شمس نظراتها الحارة ، كيف لا يجد بعد إلا الفناء تحت
طبقات الجليد ، التى راكمها فوقه صدودها !

ولكنها زادت بعداً على بعد ، وصدأً على صد ، وأمعنت
فى تعاليها وكبريائها ، وما كاد يعود إلى لندن حتى غادرتها إلى
بلدة « باث » !

وكان شلى مضطراً إلى الإقامة فى المدينة . فقد بلغ سن
الرشد ، وأنذره محاميه بأن أسرته قد ترفع عليه الدعوى لتجريد
من حقوقه . ومع أنه كان مغرقاً بالديون فقد أصرّ على
تخليص جودوين من ديونه بعد أن فشلت مكتبته ، وكان يلزم
لإنقاذه ثلاثة آلاف من الجنيهات الإنجليزية ! . .

فما كاد جودوين يعرف ذلك حتى تهافت على تلميذه
الذى أصبح « أعزب » فى لندن ، و « نصفه الأفضل » فى

الريف إلى أجل غير مسمى . . فصار يدعوه للعشاء كل ليلة
 وكان شلى يتقبل الدعوة لكي يرى البنات . . . وقد أخبره
 جودوين أنه سيلقى « ماري » التي عادت من أسكتلندا ، ورسمها
 له في صورة جميلة : سبعة عشر ربيعاً ، روح حي جذاب ،
 وعقل مستنير ، وخفة ، ورشاقة ، وهمة ، ورغبة شديدة في
 المعرفة ، ومثابرة لا حد لها . . وكانت « فاني » و « جين » قد
 سبقتا فوصفتها له بأنها لا يعدل ذكاءها إلا جمالها . وكان
 قد سبق له الاطلاع على أدب أمها « ماري وولستونكرافت » ،
 وحمل لها أشد الإعجاب

كان في حاجة إلى أن يجسد في شكل امرأة جميلة : القوى
 الخفية الخيرة ، التي يتخيلها مبعثرة منشورة في أرجاء الكون . . .
 وكان الحب ، عنده ، إعجاباً هائماً ، وإيماناً وطيداً ، ومزيجاً
 شائقاً كاملاً من الاشتهاء ، ومن الفكر والذكاء . . .

وكانت ماري هي التي ينتظرها . . فتقرر مصيره

كان الحمياً نقيماً ، شفافاً ، في شحوب . . والشعر يتدلى على
 جانبيه ، في غدائر ناعمة ، كسبائك ملتوية من ذهب . .
 والحين مرفوع . . والعينان بلون البندق ، جادتان في حنان . .
 وهناك الذكاء الثاقب ، والإحساس المرهف ، والبسالة الخزينة
 فأوحت إليه ، ونفخت فيه

قال لنفسه وهو يصغى بانجذاب إلى صوتها الفتى الشجى :
 « يا للجد ، ويا للحس ! . . . » . فتاة ، هى تحفة الفن العليا
 وود لو أسرع فحملها بعيداً ، محلقاً بها ، على جناحيه ،
 إلى مملكة سحرية غريبة ، فيما وراء الطبيعة ! . .

ما أبعد مارى هذه عن هارييت ، تلك التى لم تعرف كيف
 تحقق له هذا المثال ، الذى يؤلف بين العقل والجمال . . ولم
 تستطع اجتياز امتحان الزمان العسير . . فكانت مدللة ، طائشة ،
 بارعة فى مكائد النساء !

أما مارى فرفيقة ، مرهفة ، ماضية حادة كالسيف المهند
 المصقول . . رباها مؤلف « العدل السياسى » . . فتحرر عقلها
 من خرافات النساء

وكان شلى يقضى الساعات يتأمل . . .

وكانت على استعداد لأن تحبه . فالتحضير الرومانتيكى
 لخيالها قد قامت به أخواتها اللواتى ظلن شهراً كاملاً لا يحدن
 فى رسائلهن إلا عن شاعرهن الجميل . . وها هى ذى ترى أن
 الخبّر يفوق الخبر . ومع أنه لم يكن يشكو فقد أحست حزنه !
 وذات مساء حدثته بشجونها . فهى تعبد أباها ، ولكنها
 تمقت زوجته . والمكان الوحيد الذى تستريح إليه هو قبر أمها ،
 تذهب إليه كل يوم تطالع عنده ، وتتأمل . .

ومرة أخرى ، بعد خمس سنوات ، رأى شلى نفسه جائياً فى مقبرة إلى جانب عذراء جادة مولعة . . . وهكذا تجسّد معبوده ، مرة أخرى ، فى شكل امرأة !.. لكنه لم يعد حراً . لقد كان متزوجاً ! ولا مرء فى أن الزواج ليس إلا عُرفاً ، فمن لم يعد يحب فلينطلق من إساره . وهو لم يَعِد هارييت بشىء غير هذا . وهو يظنها صارت خليلة للماچور ريان ، فهو لا يتحرّج من شىء إزاءها ! غير أن زواجه كان شرعاً لا يمكن التحلل منه . . فماذا عنده ليقدمه إلى مارى ؟ . . أفى مقدوره أن يرضى لها ذلك الوجود المستهجن ، الذى لم يشأ أن يفرضه على حبيبته الأولى ؟

على أن حباً متبادلاً ، ولو كان بلا رجاء ، هو خير من : الشك ، والوحدة ، والحرمان . فكاشف مارى بحقيقة حياته الزوجية ، فوصف لها ما أصابه من الحيبة الروحية فيها . وكان بحاجة إلى رفيقة تشعر بالشعر ، وتدرك حكمة الحكماء . . وما كانت هارييت لتستطيع هذا ولا ذاك !

وأهدى إلى مارى نسخة من ديوانه . وكان الديوان مهلى إلى هارييت « ملهمة هذه الأغاني » . . فكتب تحت هذا : « كان الرجل يوشك أن يتزوج امرأة ، لم تنجذب نحوه إلا من أجل ثروته ، فبرهنت على أنايتها ، بالتخلي عنه ، وهجره فى سجنه » ولما عادت مارى ، واختلت بنفسها ، أضافت :

«... لا أستطيع أن أكون لك ، ولن أستطيع أن أكون لسواك ولكنى لك وحدك ، لا شريك لك : بالقبلة الصامتة ، والنظرة المختلسة ، وبالابتسامة التى تراها ولا يراها الناس . إننى وهبتك نفسى .. والعطاء مقدس » ...

هذه النظرات التى لا يراها أحد ، وهذه الابتسامات التى لا يفهمها أحد ، قد رآها جودوين ، وفهمها .. وأخذته القلق ! فطلب إلى ابنته أن تكف عن لقاء شلى . وكتب إليه ينصحه بأن يصالح زوجته ، وسأله أن يكف عن زيارته !

كان هذا عاملاً على استعجال الحوادث .. فقرر شلى ، الهائم بمارى ، المحروم منها ، أن يضع لذلك حداً . وكان رغم تأكيدات صاحبيه بيكوك وهج يصر على أن هارييت مذنبه ! قال لنفسه : « إن شيئاً واحداً يهملها : المال ... وسأكفل من هذه الوجهة مستقبلها .. وتسترد حريتها » ! ..

ودعاها إلى لندن وأخبرها بنيتها فى هدوء وعطف . وكانت مريضة فى حمل لأربعة أشهر ، فضاعفت الصدمة مرضها ، واشتد الخطر عليها .. فسهر شلى على معالجتها ، وتفانى فى خدمتها ، فزادت شقاء

وما كادت تمالك حتى استأنف محاجته التى لا تلين :
— إن اتحاد الجنسيتين مقدس ، طالما هو يشمل الزوجين

بالهناء ، وهو ينحل طبعاً من تلقاء نفسه ، بمجرد ما يزيد ضرره على نفعه !

فضاقت الدنيا بهارييت ، ولم يكن لها بد من جواب تجد به مخرجاً ، ولكنها لم تجد ما كان ينبغي أن تقوله .. فحلمت بأنها تتخبط وسط جدران عالية غير منظورة ، مطبقة عليها ، كمن يتخبطه الشيطان من المس ..

وسخطت على ماري . إنها هي السبب في هذا كله ، أخذت شللى من زوجته ، واستغلت تعلقه بالخيال ، واستخدمت ذكرى أمها في لعبة شائنة !

ولم تشعر ماري بذرة من الشفقة على هارييت . فصورتها في أبشع صورة : « إن امرأة كان من سعدها أن اقترنت بشللى ، فتصّرت في إسعاده ، لا يمكن أن تكون إلا مخلوقة أنانية ، طائشة ، خاملة » . وكانت تعلم أن شللى سيعامل هارييت بسخاء وأنه سيصدر أمراً إلى وكيله ليدفع لها أكبر نصيب من معاشه ، وهو ما يريح ضميرها .. وقالت : « سيكون لها المال ، وهو كل ما يعينها »

وكان شللى في حالة يرثى لها من الهياج العصبي . إن نوعاً من العبث العاطفي قد أثار في نفسه مشاعر متضاربة . فلما رأى هارييت تستقط في هوة من اليأس والتقنوط لم يستطع أن ينسى

يوم كانت رضىة ممتعة . ولكنه لم يكد يعود فيلقى مارى حتى عبد
منها : لطفها ، ورقتها ، وجدّها . . ولكى يهدئ من تأثيرته
ساعة أو بعض ساعة تعاطى خلاصة الأفيون ، وزاد فى تعاطيها
يوماً عن يوم . . وأظهر صاحبه بيكوك على الزجاجة قائلاً :
« إنها لا تفارقنى أبداً »

وكان يردد بلا انقطاع قول سوفوكليس : « يا ليتنى ما
وجدت فى هذه الدنيا ، ولا اكتحلت عينى بنورها ، إذن
لكنت أكون من المسعدين . . أما وقد طلع على النهار ، فما
أحرانى بأن أعود من حيث جئت . . لا ألوى على شئ . . »

أوصى شلى بعربة السفر للساعة الرابعة صباحاً . وظل ساهراً
متربصاً ، سواد الليل كله ، أمام بيت جودوين . وأخيراً فتحت
مارى الباب الخارجى ، قليلاً ، بلا صوت ، وهى فى ثياب
السفر . وكانت أختها « جين » تتحدث معها بصوت منخفض
مشرفة على الحقائق باهتمام !

وتعبت مارى من السفر المتواصل الطويل ، غير أن شلى
لم يجرؤ على التوقف ، خشية أن يكون جودوين فى أعقابهم .
ثم بلغوا فى نحو الساعة الرابعة مساء ميناء دوفر ، وعبروا المانش
إلى كاليه فى مركب صغير

وكان مساء جميل . ورأى الهاربون أنهم نجوا ، وصاروا
فى أمان . وكانت مارى قد اشتد بها المرض ، فقضت الليل
مضطجعة على ركبتي شلى ، يسند رأسها على كتفه ، ويعنى بها
جهده . وغاب القمر وساد الظلام التام ، فانطلقت زوبعة
هوجاء ، كان برقها الراعد يضرب بالسياط وجه البحر الأسود
الماء ، فتثور مياهه ، وتنتفخ ، وتنفور . وأخيراً بزغ النهار ،

وصحا الجو، وطاب الهواء، وطلعت الشمس وردية شقراء على فرنسا
وانتعشت ماري من سباتها، وقضوا يومهم في خان، حتى
وصلت سفينة بريد دوفر حاملة حقائبهم وحاملة معها أيضاً مسر
جودوين، جاءت لتقنع ابنها «جين كليرمون»، على الأقل،
بالعودة معها. غير أن فصاحة شللي فازت بها. وعادت مسر
جودوين وحدها

وفي الساعة السادسة غادر المسافرون كاليه إلى بولوني في
مركبة تجرها ثلاثة خيول، تجري خبيبا...

وكانت خطتهم تنضى بالذهاب إلى سويسرا، ولكن
بضعة أيام في باريس أتت على ما في كيس نقودهم. وكان
معهم خطاب لرجل أشغال فرنسي، يدعى «تافرنيه»،
ليحصل لهم على مال. ورهن شللي ساعته وسلسلتها لقاء ثمانية
بنتوات ذهبية، كفلت لهم الطعام خبزاً وجبناً خمسة عشر يوماً،
وفي آخر الأسبوع قبل تافرنيه أن يقرضهم ألفاً ومئتي فرنك،
وهو دون ما يكفي نفقات السفر في مركبة البريد، فقرروا
الرحيل على الأقدام، وشراء حمار لحمل العفش وركوب ماري.
فذهب شللي إلى سوق البهائم، وعاد إلى الفندق يمحش صغير.
وفي الصباح التالي استقلوا عربة إلى أبواب شارنتون على الحدود،
والحش يتخبط سعياً وراء العربة!

وبعد بضعة أميال تعثر الجحش من التعب ، فاضطر
 شلى وجين إلى حملة ! . . وفي القرية التي باتوا فيها باعوه إلى
 فلاح ، واشتروا بدلا منه بغلة ! . وكانت آثار الحرب والدمار
 بادية على البلاد ، فالقرى خربة ، والبيوت بلا سقوف ،
 والجدران المهدامة سودها دخان النار ، وكانت الأسرة في النزل
 الحقيبة قدرة ، والفئران الهائلة تصول وتجول حولهم في الظلام .
 فاختاروا النوم في مطابخ القرويات !
 وتساءلت ماري بقلق عما يمكن أن يكون قد أصاب أباهما
 ألماً من هربها . .

وكان شلى مشغول البال على مصير هارييت ، فكتب إليها
 خطاباً طويلاً يسألها أن تلحق بهم في سويسرا لتسكن بقرهم ! .
 وستجد فيه على القليل صديقاً لا تشوبه من الأنانية شائبة .
 ورأى من الطبيعي أن يطمئنها على صحة ماري !
 ولم ترد هارييت على الخطاب

ووصلوا من نيوشاتل إلى منطقة البحيرات . وأراد شلى
 الاستقرار في « برونن » قرب معبد غليوم تل ، المدافع عن
 الحرية . وكان البيت الوحيد الخالي هناك : قصراً عتيقاً مهجوراً
 كالطلل البالي ، فاستأجروا فيه غرفتين لستة أشهر ، واشتروا
 أسرة ، وكراسي ، ودواليب ، وموقداً . وبدأ شلى في يومه

قصة كبرى : « The Assassins » ، كأنه قد طاب
مقامه ، واستقرت أيامه ! ..

بيد أن الموقد الحديد لا يشتعل . والحجرة مثلجة ، ممتلئة
منه دخاناً . ومن الخارج المطر يضرب زجاج النوافذ بسياطه
الرفيعة . ووجدوا أنفسهم في وحدة موحشة . فتذاكروا حديث
بيوتهم الإنجليزية الجميلة ، والشاى الإنجليزي الساخن الزكى ...
والجو الإنجليزي الملبد بالغيوم ، وهو مع ذلك لا يخترم برده
الصدور . . والرجال الإنجليز الذين يتكلمون بلسانهم ويعرفون
نطق أسمائهم .. حتى المرابون الإنجليز مجاملون ، وإن كانوا ينهبون
وأحصى شلى ما بقى لهم ، فلم يجد إلا ثمانية وعشرين جنيهاً !
— فلنعد إلى بلادنا ! ..

لم يكد شلى يقول ذلك حتى قر قرارهم على الرحيل ،
وأحسوا بالفرح والمرح . وقالت جين :

— يا للمضحكات المبكيات : أهكذا نغادر ، بعد ثمان
وأربعين ساعة ، الغرف التى استأجرناها لسته شهور ، وأثنائها
بمالنا ! .. لقد زعمت إذ رأيت صفور دوفر تباعد عنا ،
والشاطيء الإنجليزي يختفى ، أننى لن أعود فأرى من ذلك كله
شيئاً . . . والآن . . .

وفى الصباح التالى حملهم مركب إلى لوسرن . ومن لوسرن

بلغوا بال ، ثم كولونيا . وفي المساء غنى البحارة تحت ضوء
النجوم أغاني الهوى . . وشلى يعمل فى قصته « السفاحون » ،
ومارى وجين ، كلتاهما تبدأ فى وضع قصة جديدة أيضاً !
ثم حملتهم مركبة البريد الهولندية إلى روتردام ، فوصلوها وليس فى
كيس نفودهم دائق واحد ! . . وبعد مناقشات طويلة مع قبطان
إحدى السفن قبل أن يحملهم معه . . وقطع شلى الرحلة بطولها
وهو يناقش أحد الركاب فى مسألة النخاسة والرقيق . وأيدته
مارى وجين وهما تجهلان تماماً ماذا تأكلان غداً ، وإن كانتا
تعلمان أن برسى شلى عبقرى ، وأن الإنسان حيوان ، ينشأ ،
ويتقدم ، ويرتقى . . . وقد يكمل ! . . .

— ٢٠ —

عندما وصلوا لندن لم تكن معهم أجرة العربة التى أقلتهم .
فاتجهوا بها إلى المصرف . وهناك علم شلى أن هاريت قد
سحبت رصيد حسابه ! . . فذهبوا بالعربة لمقابلتها . . فظنت أن
زوجها قد عاد إليها . . ولكنها استنكرت وسخطت عندما علمت
بأن غريمته واقفة بالباب . . . ومع ذلك أقضت شلى بضعة
جنيهات ، مكنت الجوالين الثلاثة من سكنى بعض الغرف
المفروشة الحظيرة !

ورفضت أسرة جودوين استقبال العصاة الهاربين . وترافع
شلى ، مدللاً بأنه إنما طبق مبادئ « العدل السياسى » . .
ولكن ما كان هذا إلا ليزيد فى ثورة جودوين وسخطه فقد
كان « العدل السياسى » عنده كتاباً نظرياً لا يمكن تطبيقه
فى وسط مجتمع محافظ لا يرحم ، وفى ذات بيته ، وبين أفراد
أسرته ، وفى أعز شخص لديه ، وأكثر من ذلك كله تحريف
آرائه ، وقلب مبادئه .. لا ، ثم لا .. إنه لن يصفح عنهم أبداً !
كان شلى قد استدان مبالغ طائلة جداً ليقرضها لوالد مارى ،
فما كاد المحضرون يعلمون بعودته حتى بدأوا فى مطاردته
واضطهاده . ولم يكن جودوين ، إزاء شلى ، عاجزاً عن السداد
فقط ، ولكنه كان فى حاجة إلى مبالغ جديدة منه !
وكانت هذه المسائل المالية هى التى أرغمته على المضى فى
مراسلة شاب خائن فاجر . . وكان ضميره يعذبه كثيراً لهذا
الاضطرار . . أو على الأقل كان هذا ما يقوله فى كل خطاب !
وكانت هذه المراعاة من رجل طالما أعجب به شلى ،
وعبدته مارى ، سبباً فى حزنهما ، فكأنما يقولان ، وهما يتنهدان :
« آه منك أيتها الفلسفة ! . . »

أما مسز جودوين فقد كانت ناقمة عليهما لأنهما أفسدا
عليها بنتها التى ليست من جودوين ، وحظرت على « فانى » اللطيفة

أن تزورهم . وذهبت هي مرة واحدة لترى « جين » ، فلقيت شلى فى السلم ، فلوت عنه رأسها ، وطوت كشحها ! . . . وكانت العلاقات بهارييت تارة سهلة ، وتارة صعبة ، تبعاً لتقلبات طبعها . ولم يكن ينقصها شىء ، وما زالت لديها فضلة من مال شلى ، غير المعاش الذى أجراه عليها الخمار العجوز . . . ولكنها كانت حاملاً ، أشقى ما تكون . . .

وكانت صاحباتها يقلن لها إن لفحات الهوى قصيرة الآجال سريعة الزوال . وإن زوجها سوف يعود إليها . وعندئذ يستخفها الرضا . وتكتب إلى شلى خطابات ودية . وكانت تعتقد أن مارى هي أسّ الشر ، وقد سحرت برسى بما تقصه عليه من حكايات خرافية .. وهو فى الواقع طيب القلب ، ولن يهجرها ومعها طفلاه وكانت أحياناً تعصف بها نوبات حزن وسورات غضب ، فتحاول أن تزيد فى متاعب الشخصين الممقوتين : فتستدين ، وتبعث بالدائنين إلى شلى . وتروى للناس أنه يعيش عيشة الحنا مع فتاتين من بنات جودوين . وتذهب لتلقى دائى جودوين ، تحرضهم ، ليعمنوا فى قسوتهم . . . وتسمع مارى بهذا كله ، وهى لم تر قط هارييت ، فتتهذ قائلة : « يا لها من امرأة فظيعة ! . . » وفى يوم من نوفمبر شعرت هارييت بالآلام ، وتوهمت أنها مريضة جداً . . فبعثت إلى شلى ليلاً ، فهورل إليها . فلم يكد

يبدى اهتمامه بها ، وحده عليها ، حتى ذابت حناناً . . . لكنه دفعها عنه بحزم رفيق . .

وفي آخر نوفمبر وضعت ولداً ابن ثمانية أشهر . . ولم يؤد مولده إلى مصالحة أو وفاق . وكان شلى يشكّ في أن الولد ولده ! أما مع مارى ، فبالرغم مما هما فيه من شدائد وخطوب ، فقد كانا سعيدين يعدان الحياة فرصة ، أو جامعة يبحثان فيها ويتعلمان ، وكانت تصحبه في زيارته للمحاميين والمحضرين . . وإذا ما راح على شاطئ النهر يلهو بجشد أسطول من الورق تجلس هي إلى جانبه ، وتبنى له السفن . وأخذت نفسها ، تحت إشرافه ، بدراسة اللاتينية واليونانية . وكانت أوفر ثقافة من هاريت ، فلم تر في هذه الدراسات سبباً للضجر أو السآمة ، بل رأتها مضاعفة لمسرّاتها ، فإن القبلة المتبادلة بين شخصين مثقفين ثقافة أدبية مشتركة تكون أحرّ وأحلى

كانت الغيمة الوحيدة في سماءهما هي أختها « جين » التي رأت أن اسمها « جين » قبيح ، فاتخذت لنفسها اسم « كلير » ! وكانت فتاة لامعة ، جميلة ، ولكنها عصبية دقيقة الشعور سريعة التأثير . ولم يكن أشد خطراً على أعصابها من العيش المتصل المقيم مع شاب وشابة عاشقين . وهي تحمل لشلى إعجاباً قوياً حاراً ، وتبديه بجلاء أكثر مما يحسن . . وكانت مارى تشكو من ذلك ،

ولم ير شلى فى هذه العاطفة ما لا يجوز أو ما لا يليق !
 وكانت مارى تنتظر ولداً فلزمت البيت ، وساق شلى معه
 « كلير » إلى الحمامين والمخضرين ، وإلى شاطئ النهر ، ورجا منها
 أن تسهر معه الليل الطويل . وحدثها عن : هارييت ، وعن مس
 هتشير « شقيقة روحه ! » ، وعن أخواته . . .

وكان يجب : البوح ، والإفاضة ، والتحليل الفكرى !
 وبدأت له الصراحة الخالصة التامة أسهل وأيسر مع كلير التى لم
 تكن خليلته . ولم تستطع مارى على هذا كله صبراً ، فلم تخف
 فروغ صبرها ، فانكملت كلير من عتاب أختها ، وتممررت ،
 ولزمت الصمت الكتيب . .

وفى المساء ، آوت مارى إلى فراشها . فحاول شلى أن يهدئ
 من نائرة كلير ، وأن يسرّى عنها . . فأخذ فى رقة وأناة يفسر لها
 العواطف المتضاربة فى حزبهم الصغير . وكان من اللطف
 والعطف بحيث اقتنعت ورضيت ، ولما لحق بمارى أعاد على
 مسمعها ما كان من حديث . وسمعا فوق غرفتهما كلير تمشى
 وتكلم فى منامها . . ثم لم تلبث أن نزلت . فقد كانت أعصابها
 من التوتر بحيث لم تستطع البقاء وحدها . فأخذتها مارى فى
 سريرها ، وصعد شلى للنوم فى الغرفة العليا
 وتكرر هذا الفصل مراراً . . .

وأصابت عدوى الأعصاب المتوترة شلى . ففي ذات ليلة ،
بعد حديث عن الأشباح وظهور الأرواح هزيعاً من الليل ،
انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الخوف والرعب !

* * *

كان حكم ماري على هج قاسياً . فهي تعده ، على خفة
روحه ، يخطئه الجدل في نظرتة إلى الأمور . وكانت محقة في ذلك
لأن هج قد لبس قباء المحافظين من أهل وطنه ، وصار نصيراً
للتقاليد . وقال مرة لشلى : إنه يرى ماري حسناء وافرة الذكاء ،
فنقل شلى رأيه هذا إلى ماري ، فلما زارهم على أثر ذلك بدأت
ماري تستلطفه . . واندمج في جو هذا البيت مرة أخرى ، يترجم
ويطالع مع ماري وكثير . ويصحبهما إلى صانعة القبعات . .
لأنهما كانتا أيضاً تذهبان إليها مثل هارييت المسكينة ، ولكن
بروح أخرى . . فالقبعات عند ماري لازمة متواضعة ، أما عند
هارييت فكانت هواية وهياماً !

— ٢١ —

حملت خادم « البيت المفروش » خطاباً من سيدة تنتظر على
الرصيف المقابل . وكان الخطاب من فاني ، ينذر شلى بأن
دائيه يعدون العدة للقبض عليه ، فتزل إليها شلى وكثير مهرولين ،

فما إن رأتهما حتى ولت هاربة . ولكن تلميذ « أيتون » عدّاء سريع ، فلم يلبث أن لحق بها . فأخبرته بأن المحضرين يبحثون عنه ، وأن ناشره أعطاهم عنوانه ، وأن جودوين لن يحرك ساكناً لإنقاذه !

ولما لم يكن معه مال فليس أمامه إلا الاختفاء . فانتقل إلى مسكن آخر ، بينما تظل ماري وكليز حيث هما لتضليل العدو ! وضرب الفراق بين العاشقين . . وبدت لهما هذه الفرقة حرقاً . فكانا يتواعدان على اللقاء في الحانات أو الحانات النائية ، يتبادلان بعض القبل خلسة ، ثم يفترقان خشية أن يكون هناك من يقتنى أثر الحبيبة . .

وفي يناير ١٨١٥ مات الشيخ الهرم السير بيش شلى ، فى الثالثة والثمانين . . فأصبح مستر تيموثى بدوره باروناً ، وصار شلى وارثه المباشر . فسافر إلى بيت أبيه ، وبصحبه كليز ، فتركها فى القرية ، وقصد وحده قصر فيلد بلاس . وكان السير تيموثى منتفخاً من كبرياء لقبه الجديد ، وهو أشد مما كان استنكافاً من أن يكون له مثل هذا الولد ، فأبلغه بواسطة الخادم أنه يرفض استقباله . فجلس على السلم ، وجعل يقرأ أشعار « ملتون » فى انتظار الأخبار . . وما لبث الطيب أن خرج ، وقال له إن والده كان فى حالة غضب شديد ، ثم خرج كذلك ابن

عمه « سيدنى شلى » للسلام عليه خفية وإحاطته بتفاصيل الوصية وكانت وصية خارقة للعادة . فقد كان السير بيش شلى لا يدور بخلده غير فكرة واحدة ثابتة ، هى تكوين ثروة هائلة يتوارثها الخلف عن السلف . وكان ذلك يقضى بأن يزيد فى حبس الأملاك ووقفها قدر طاقته . فترك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى ، منها ٨٠,٠٠٠ جنيه تمثل الوقف الذى يعود إلى برسى حتماً عند موت والده . وإذا قبل برسى شلى امتداد الوقف كان له حق الانتفاع بربع الثروة كلها . . وإذا لم يقبل فإنه لا يرث بعد موت أبيه السير تيموثى إلا ٨٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى فقط ، لا سبيل إلى حرمانه منها بأى حال من الأحوال

فعاد شلى إلى لندن وقصد محاميه ليناقشه فيها . وقدّر استحالة قبوله امتداد الوقف ، لأنه يأبى تشريعاً شاذاً كهذا يجعل الثروة بمنزلة رب من الأرباب تُفرض عبادته وتقديسه ! وكذلك يأبى حيازة مثل هذه الثروة الهائلة . أما ما كان يتمناه فهو أن يحصل فى الحال على دخل كاف للعيش حسب مزاجه ، وعلى مبلغ صغير يكفى لتسديد ديونه . فأرسل اقتراحاً إلى أبيه : بأنه مستعد لأن يبيعه حقوقه نظير دخل عاجل . وراق هذا الاقتراح السير تيموثى شلى ، إذ كان قد فقد كل أمل فى رد برسى عن غيه ، ولم يعد يفكر إلا فى ولده الثانى . . غير أن

رجال القانون لم يفصلوا في شرعية تحقيق هذه الرغبة المشتركة بين الوالد والولد ، لكنهم أجازوا فقط أن يبيع شلى إلى أبيه جانباً من الميراث ، نظير دخل سنوى قدره ألف جنيه إنجليزى ، ويأخذ بادئاً مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات أو أربعة آلاف نقداً لسداد ديونه . ولم يكن هذا بالنسبة لشلى الثروة الطائلة . ولكنه كان على كل حال نهاية الضيق والبأساء

واتجه فكره ، أول ما اتجه ، إلى ربط معاش لهاريت . فوعدها بمئتي جنيه سنوياً ، إذا أضيفت إلى تلك التى يعطيها إياها أبوها وستبرك جعلتها فى مأمن من كل حاجة . ثم عمل على دفع ديون جودوين ، ورصد لذلك دخل عامه الأول كله ! بيد أن « الصديق الموقر » رأى أن هبة الألف جنيه هى دون ما كان ينتظره بكثير ، بكثير . . وأنه ليس أسهل من الاستدانة على ميراث أصبح الآن دانياً . . وقد تميز شلى من الغيظ ، وتلظى حنقاً . . ولكنه تمالك ، وكتب الى جودوين يعبر عن دهشته من أن يرى والد مارى أنه من الطبيعى الكتابة إلى مغتصب ابنته سائلاً إياه مالا ، ويأبى فى الوقت نفسه وصل العلاقات مع هذه البنت نفسها ! فأجاب جودوين أنه لهذا ، أى بسبب استدائنه من مغتصب ابنته ، لا يستطيع أن يفتح لها أبواب بيته ، فهو لن يحازف بأن يتقول عليه العالم أنه قايض على

شرف ابنته ليدفع ديونه . ورد جودوين « شيكاً » مرسلاً من شلى باسمه ، موجهاً نظره إلى أن اسمي « شلى » و « جودوين » لا يليق أن يظهرهما معا على شيك واحد ! . . وعلى شلى أن يبعث بالشيك باسم مستر « فلان » أو « علان » ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، يرضى جودوين بتحويله إلى « جودوين » ! . .

وبعد رسائل عدة تبادلها حول وصل العلاقات ، وبعد عناء طويل من جودوين ، وثافت شديد منه على مال شلى ، واشمئزاز شلى لأجل هذا من الجنس البشرى كله ، كتب شلى إلى جودوين : « سنقف صلاتنا ، من الآن فصاعداً ، عند حد الأعمال والأشغال . وإنى أوافق على ما تراه من ضرورة الاقتراض على معاشى السنوى . وإنى أرى جلياً إلى أى حد تلزمك حالا سلفيات من المال لسداد حاجاتك . . وسأبذل كل ما فى وسعى لأحصل لك عليها . . . »

وهذا من شلى ، هذا الاحتقار فى برود ، وهذا الإحسان فى صدود ، ما كانا ليوهنا من عزم المقترض على الاقتراض ، ومد الأكفّ وتصعير الحدود ! . .

وكذلك كان جودوين ! . . .

وضعت ماري طفلاً لم يتم حمله ، فقال الطبيب : إنه لن يعيش . وظل شلى ساهراً ، مقسماً فؤاده بين المهدي وسرير النفساء ، مؤتسماً في سهره بصحبة المؤرخ اللاتيني « تيت ليف » ، أو الفيلسوف « سنيكا » .. من حكماء الزمن الغابر ! ..

وحملت « فاني » صندوقاً خشبياً للملابس الطفل ، هدية من مسز جودوين الغريبة الأطوار . ولكن زوجها الفيلسوف العجس قد ظل صلباً لا تلين له قناة . وجاء هج فأنزل السكينة على قلب ماري بحديثه اللاذع الفكه !

ونما الطفل برغم النبوة ، وعاش شهراً .. فبدأت ماري تطمئن .. ولكنها استيقظت ذات صباح ، فوجدته ميتاً !

واستمر شلى وكليز يجولان لندن معاً ، وماري باقية في البيت ، تشتغل بالإبرة ، وتفكر في طفلها الصغير ، الذي جعلها أمّاً ، ثم حرمها الأمومة .. وفي الشارع يسمع ضجيج الجماهير وصياحها . إذ كان الوقت وقت اضطرابات وشغب . فقد عاد نابليون من جزيرة إلبا ، وجاءت تهديدات بالحرب من جانب فرنسا .. وماري كأن على عينيها سخابة من الدموع ! وكانت تغار من كليز . واعترفت لشلى بغيرتها . والغيرة عنده

عاطفة خسيسة ، تنقص في عينيه من قدر معبودته ماري . . أى شىء يمس حبه إياها إذا ما بسط حمايته على امرأة سواها ؟ . . غير أنه سلم بأن جو بيتهم الثلاثى صار خانقاً . وبحثا لكثير عن وظيفة مربية أطفال . غير أن السمعة الغريبة التى أدركتها بفرارها إلى فرنسا جعلت كل مسعى عديم الجدوى . . وهى لا تريد الذهاب ، لأنها فى حبها لشللى تنتظر التطورات بلا انزعاج . . وأخيراً قبلت ما أعد لها من النزول ببلدة « لينموث » ، عند أرملة من أصدقاء أسرة جودوين

* * *

كثير فى منفاها الريفى ، غير أنها لم تكن بالتى تقنع طويلاً بالوحدة الحلوية . فبحثت عن سبب للعيش . . . أما وهى ذكية جريئة ، وقد أدركت استحالة أخذ شللى من أختها ، أو حتى مشاركتها فيه ، فقد بحثت بحساسة عن بطل آخر لعواطفها المكبوتة !

ولم تجد أليق بها من لورد بيرون ، الرجل الشاعر الذى يعبد فى إنجلترا عبادة ويلعن لعناً ، وكانت تحفظ أشعاره ، التى طالما ردها شللى . . وكانت تعرف ما نسج حول اسمه من أساطير الرذيلة والحجون ، والفتنة الشيطانية ، والقسوة الجهنمية ! جمال الرجل ، وعظمة الاسم ، وعبقريه الكاتب ، وجرأة

أفكاره ، وفصائح غرامياته : كل هذه اجتمعت لتجعل منه
البطل الكامل . وكانت له خليلات من أرقى الطبقات !
حين تزوج روى عنه أهل لندن جميعاً : أنه بعد عقد الزواج
قال لعروسه وهي تصعد مركبة الزفاف : « ها أنت ذى قد
صرت زوجتى ، وهذا يكفي لأن أمقتك . . ولو أنك كنت
زوجة رجل سوى فلربما أحببتك ! »

وعاملها باحتقار ، فطلبت الانفصال عنه بعد عام واحد !
وراحت كليز تطارد برسائلها دون جوان فى شخص لورد
بيرون ، تعرض عليه حبها ، ونفسها ، تتحل لنفسها الأسماء ،
وتتلون فى الطلب ، أو فى العرض ! ولكن دون جوان لم يرد عليها !
وهل هناك أشد عناداً من امرأة متعبة من عفتها ، زاهدة فى
فضيلتها ؟ . . فظلت تهاجمه ، وتطارده !

وظل ملازماً صمته . . وأخيراً جازفت بعرض الشىء الوحيد
الذى قلما يرفضه زير النساء المعتز . . كتبت إليه رسالة طويلة
ختمتها قائلة : « . . . فهل تراك تسمح لى بالعيش معك بضعة
ساعات ؟ . ثم لن أبقى لحظة بعد أمرك لى بالانصراف . . .
وافعل بعد ذلك ما بدا لك . . واذهب ، نقل فؤادك حيث شئت
من الهوى . وارفض أن ترانى . . واقس ما طابت لك القسوة ..
فلن أذكر منك إلا رقة شمائلك ، ووحشية طبعك الشائقة » !

ها هو ذا دون جوان ، آخر الأمر ، قد وقع في الفخ . .
تعب من طول المطاردة ، وتقبل هزيمته من هذه الغازية . . .
وكانت نفسه من قبل تهفو إلى مفارقة انجلترا والعيش في
سويسرا أو إيطاليا ، فرحب بهذه الغرامية المفروضة عليه فرضاً ،
المغتصبة منه اغتصاباً !

— ٢٣ —

لم يكن دون جوان هذا يتوقع أن يلقى الاضطهاد الطويل ،
من « صيده الهزيل » . فقد قررت كلير : أن تتبعه إلى
سويسرا . وعملت على أن يرافقها شلى ومارى !
وكان شلى قد انتهى من ملحمة جديدة « قرين الوحدة » :
تمثل فيها حكايته ، وما أصابه من دهره وأهله ، وعبر في مقدمتها عن
« ظمأ الشاعر للحب ، وموته لأنه لم يجد حباً . . وهو يموت
راضياً ، قرير العين ، للخلاص ممن حوله من الناس : الأحياء
الموتى . . أولئك الذين لا هم بالأصدقاء ، ولا بالمحبين ، ولا
بالآباء ، ولا بالمواطنين الأوفياء ، ولا بالمحسنين الكرماء . .
فعيشهم وموتهم سواء »

ولم يكن شلى نادماً على ما فعل ، ولكن العيش في انجلترا
أصبح عنده مر المذاق . وكانت مارى ، تشكو وحدتها وعزلتها ،

وترجو أن تجد في البلدان الأجنبية صديقات لها ، حيث لا
تُعرف حكاية هربها ومغامرتها .. وقد وضعت في يناير ١٨١٦
ولداً ثانياً سمته « وليم » ، تيمناً بأبيها « وليم جودوين » ! . فزاد
على بيتهم شخص المرضع ، وضاق البيت بنفقاته ، وتضاءل معاشه !
وكان يقال إن العيشة في سويسرا رخيصة .. ولم تجد
كلير صعوبة في إقناعهما بذلك ! .

وفي سويسرا نزلوا بفندق إنجلترا ، في سيشرون ، من
ضواحي جنيف .. وبدأ لهم هناك أن هذه المشاهد المرصعة بأمواج
الشمس الحنون غاية في الجمال .. فاستأجروا مركباً ، وراحوا
يقضون أيامهم في البحيرة ، يقرأون ، وينامون .. .

وبينا كانوا هكذا سعداء ، بين الماء والسماء ، كان شايلد
هارولد ^(١) ينزل نحوهم ، من صخور إنجلترا ، في موكب
حافل .. فهذه البلاد ثارت عليه ، في نوبة عارضة من نوبات
الفضيلة التي تصيبها وتتابع عندها ، فهبت وطردته عن شواطئها ..
طردت السيد دون جوان المتهم بالزنا بمحرم .. وأثار رحيله أشد
التطلع .. فإن المجتمع ، الذي يعاقب بقسوة أية فتنة في الغرائز
يحمس في صميمه مرتكبيها ، ويعجب بأثمها . تراحم صفان
هائلان من المتفرجين عند مدخل الميناء .. واستعارت كثيرات

(١) كناية عن لورد بيرون مؤلف الديوان المعروف باسم «شايلد هارولد»

من النبيلات والنساء الراقيات ملابس وصيفاتهن وخادماتهن
ليختلطن بالجواهر دون أن يستلفتن الأنظار . . وكان البحر
هائجاً ، فذكر بيرون لرفقائه أن جده ، الأميرال بيرون ، كان
معروفاً في الأسطول باسم « جاك العاصفة » . . لأنه لا يحب
الإبحار في غير الزوابع والزعازع . . وكان بيرون برحيله تعساً
شقيماً ، فأراد أن يكون ألمه عظيماً كالإعصار . . .

ونزل بيرون فندق انجلترا . . وكان جمال محياه رائعاً . وأول
ما يروعك منه الزهو والذكاء . ثم شحوب بشرته كضياء القمر ،
تتألاً في وجهه عيمان نجلان في زرقة قاتمة ، شعره أسود ،
وحاجباه مقوسان ، وأنفه وذقنه يدلان على العزم ، وفمه يدل
على الاشتها . . وكان عيبه الوحيد أنه يعرج ، ويقول عن نفسه
إنه يظلع كما يفعل الشيطان ! .

وسر الرجال بالتعارف . وجد بيرون في شلى رجلاً من
طبقتة ، استطاع رغم عسره أن يحتفظ باليسر الشائق ، وأدهشته
منه ثقافته . فإن بيرون قد قرأ كل ما قرأ شلى ، لكنه لم يقرأ
بكل هذا الجهد الخارق للعادة . فقد أراد شلى أن يعرف ، وأراد
بيرون أن يبهز . وأدرك بيرون ذلك الفرق تمام الإدراك . وكذلك
أدرك أن إرادة شلى هي قوة نقية خالصة ، في حين أنه هو نفسه
يطفو على تيار شهواته ، وهوى خيلاته . .

ولم يدرك شلى هذا الإعجاب الذى يحمله له بيرون ، ويسعى بإخفائه عنه . فى حين أنه هو ما استمع النشيد الثالث من «شيلد هارولد» ، حتى تأثر من التحمس له ، وعجزه عن مجاراته . فقد عرف فى هذا الشعر العبقريّة التى يثس من التحليق إليها وإذا كان الشاعر فيه يخلب لبه فإن الرجل فيه يدهشه كثيراً . فقد رأى فيه سيداً «أرستقراطياً» عظيماً ، صريحاً ، شديد الخفاوة بما يبعثه الغرور فى النفس من المسرات والآلام ، تلك التى يزدريها شلى ، لأنه أقل الناس غروراً . .

أما بيرون فقد تحدى ما اصطاح عليه العرف والعادة . . وإذ وقفت هذه التقاليد فى طريق رغباته طرحها جانباً . . وأما ما فعله شلى بسداجة ، فقد فعله بيرون عن معرفة وجسارة ، ولم يكن بيرون يحب شيئاً ويقدره كالظهور والبروز فى المجتمع ! وكان زوجاً رديئاً ، ومع ذلك لم يكن يحترم إلا الحب المشروع . وملء فمه الأقوال الساخرة الكافرة ، وهو لا يعترف بأمر وسط بين الزواج والفجور ، وإنما لعب فى انجلترا ذلك الدور الجرىء الزنيم ، لأنه عجز عن امتلاك القلوب بعمل تقليدى كريم ! وشلى ينشد فى النساء ينبوعاً للحس والوحى والإلهام ، ولا يبحث بيرون فيهن إلا عن سبب للراحة والحمول ، والفتور عنهن . . كان شلى ملائكياً ، سماوياً ، يقدرهن . . وكان بيرون بشرياً ،

أرضياً ، يشتهين ، ويحتقرهن ، وينعتن بأفحش النعوت . .
 كان يقول : « ما أفضع النساء ، لأننا لا نستطيع العيش معهن ،
 ولا بدونهن » (١) ! . . وكان يقول أيضاً : « إن مثلى الجميل الأعلى
 هو امرأة من الفطنة بحيث تفهمنى وتقدر ذكائى ، ولا تكون
 من الفطنة بحيث تتمنى أن تلوح بنفسها ويعجب بها ! . »

على أن هذا لم يحل دون الصحبة الشائقة بين شلى الصوفى
 و « دون جوان » . وكان كلاهما يحب ركوب البحر ، فاشتركا
 فى شراء مركب ، يبحران به كل مساء ، مع ماري وكليز
 وطبيب بيرون الخاص ، وهو شاب إيطالى جميل يدعى
 « پوليدورى » . فيجلس بيرون وشلى صامتين ، يتبعان
 ببصرهما الصور المارئة من السحب فى طيات أضواء القمر . . بينا
 كليز تغنى ، وصوتها الشجى يحمل الفكر ، ويخلق به فى اشتها ،
 فوق المياه المرصعة بالكواكب . .

وقام شلى وبيرون معاً بحج أدبى حول بحيرة جنيف ،
 التى شهدت غراميات روسو وفولتير . . وهناك هبت عليهما رياح
 هوج ، كادت تقلب المركب . . وخلع بيرون ثيابه استعداداً . .
 أما شلى ، الذى لم يكن يعرف العوم مطلقاً ، فقد ظل ثابتاً
 لا يتزعزع ، وذراعه متعانقتان على صدره . . فزادت شجاعته
 (١) يؤثر عن الإمام على فى هذا المعنى : « النساء شركلهن ، وشر ما فيهن :

الحاجة إليهن »

هذه فى تقدير بيرون له ، وإعجابه به . . . بيد أنه غالى فى إخفاء ذلك الإعجاب عنه أكثر من ذى قبل !

ثم استأجر شلى كوخاً على شاطئ البحيرة . . وسكن بيرون « قىلا ديوراتى » على مقربة منهما ، لا يفرق البتتين إلا مزرعة عنب

ولم توفق كلير فى حبها . فقد حملت ، وبرم بها بيرون ، وأفهمها بخشونة أنه سئمها واجتواها

قال : « أنا أخذتها ؟ . . خطفتها ؟ . . ليت شعرى من الذى أخذ وخطف فى هذه الحكاية ، إن لم يكن المسكين العزيز « أنا » ؟ ! . . . وهم يهتمونى بأنى غليظ القلب مع النساء . . والله يعلم أنى كنت ، طول عمرى ، شهيدهن ! . . ولم يحدث من عهد حرب طروادة حتى الآن أن أخذ رجل وخطف بعدد ما أخذت وخطف . . وما أنا فى هذا إلا ضحيتين ! . . »

وناقشه شلى فى مستقبل كلير وطفلها المنتظر . . فكان زاهداً فيها تماماً لا يعنيه إلا أن يخلص منها فى أقرب وقت ، أما عن الولد فقد خطر لبيرون أن يعهد به إلى أخته أوجستا ! . . فلما رفضت كلير وعد بالعناية به عند ما يبلغ سنة من عمره ، على شريطة أن يكون فى ذلك مطلق التصرف

وأصبح من الصعب على شلى أن يبق بجوار بيرون ،

لا لفتور ما بينهما ، وإنما لأن كليهما كانت تتألم ، كما أن مارى
اشمأزت من موقفه وأقواله اللاذعة
وكتب شلى إلى صديقيه « بيكوك » و « هيج » ليستأجرا
له فى وطنه بيتاً.. وبدأت القافلة ، صوب الوطن ، تسير . . .

* * *

وظل شلى يرأسل بيرون ، ولم يقنط من « إنقاذ » صاحبه .
وكان يمزج لهجة التقدير والإكرام للشاعر العظيم ، بالتعالى عن
خلق الرجل غير القويم . . وعارض قلق بيرون المتولى فيما يتعلق
بسمعته وشهرته ، بصورة المجد الحقيقى :

« أعبئاً إذن خلق العظمة والرحمة ، وبسطهما على الناس ؟ .
أعبئاً إذن أن يكون المرء ينبوعاً تستمد منه عقول سواه من البشر
القوة والجمال ؟ . . ترى ، ماذا كانت تكون الإنسانية ، لو لم
يكتب هوميروس وشكسبير آياتهما البيّنات ؟ ! . . لست بهذا
أشير عليك بالطموح إلى المجد . فإن حوافز عملك ودوافعه
يجب أن تكون أنقى وأرقى . فلا ترج أكثر من أن تعبر عن ذات
أفكارك ، وتتجه بها نحو أولئك الذين يتأثرون بها ، لأنهم
يستطيعون الانسجام معها ، والتفكير على مثالك . . والمجد يتبع
أولئك الذين هو غير جدير بأن يقودهم . . . »

وكان لورد بيرون ، فى تلك الأثناء ، متجهاً نحو فينيس ،

مدينة الجندول ، الناعسة الجفون ، فقراً هذه النصائح السامية ،
في كلال وتراخ ، وعدم اكتراث . كان يتعبه الإسراف في
التقدير ، وتزعجه المبالغة في التوقير ! . . .

— ٢٤ —

من الفتيات الثلاث ، اللواتي كن يملأن بيت سكنر
ستريت حياة وبهجة ، لم تبق إلا واحدة : « فاني إملاى » بنت
مارى وولستونكرافت ، من زوجها الأول . وهى الوحيدة التى
على رغم رقها وحنانها لم تجد زوجاً ، ولا عشيقاً . . وكانت
محتشمة ، متواضعة ، محافظة . . وهذه فضائل يمدحها الرجال ،
ولكنهم لا يكافئونها ! . . وقد أمّلت لحظة من حياتها أن يعنى
بها شلى ، وبدأت تبادل له رسائل خاصة . . لكن مارى حطمت
كل ما بنته من آمال !

وأنبأها جودوين أنه لم يعد يستطيع الإنفاق عليها ، وأن
عليها أن تعمل لتعيش . .

وكانت تريد أن تصبح معلمة . غير أن هرب مارى وجين
قد جر سوء السمعة على آنسات « سكنر ستريت » ، وصارت
ناظرات المدارس يحذرن هذا اللون من التربية !
وكانت تعجب بالحياة الجنونية الخيالية التى تحياها أختاها ! .

ليتها على شاطئ بحيرة جنيف تعيش مع لورد بيرون ، الذى
تتحدث عنه لندن بأسرها ! ..

« هل هو من الجمال كصورته ؟ قولوا لى ، أصوته شجى ،
لأن للصوت تأثيره الشديد فى ؟ . . أيجىء عندكم ، بلا كلفة ؟
أريد أن أعرف : هل يلوح عليه ارتكاب ما يتهمه الوشاة به ،
فى لندن ، من آثام جسام ؟ . . إنى ، حين أقرأه ، لا أعتقد أنه
مخلوق إلى هذا الحد من الشناعة . فإنى إذا أحببت الشاعر
تمنيت لو احترمت فيه الرجل . قولوا له إن لكم صديقة محرومة
من متع الحياة ، تحب أن تقرأ أشعاره قبل نشرها . . . »
وكانت مارى وكليز وشلى يتلقون هذه الرسائل الرقيقة
مشفقين : « مسكينة فانى ! . لشدة ما نقيت على لون
سكنر ستريت » ! .

وزادت عبوديتها شعور أختيها بحريتهما ، وتقديرهما لهذه
الحرية . . كما أن وحدتها جعلتهما تدركان كل قيمة حبهما
ورأوا فانى خلال مرورهم بلندن . . كانت حزينة ، لا
تتكلم إلا عن وحدتها ووحشتها وعدم جدواها . فما من أحد على
هذه الأرض يريد لها . وعندما قالت لشلى « إلى اللقاء »
ارتجف صوتها . . وأرسلت إليه فى « باث » رسائل من رسائلها
الرقيقة المعتادة ، ممتزجة بشيء من العتب ، كذاك الذى يوجهه

الأحياء الموتى إلى الذين ما زالت حياتهم ملء الحياة !
 وكانت لفانى خالة تدعى « إفرينا وولستونكرافت » ،
 وعدت بتعيينها مربية فى مدرستها . . وما عتمت أن كتبت إلى
 جودوين : « إن أخت مارى وكثير قد تسبب الرعب للآباء
 والأمهات الضيقى العقول ، من الطبقة المتوسطة »

وفى ذات صباح تلقى شلى ومارى رسالة غريبة من مدينة
 بريستول ، تقرئهم فيها فانى الوداع بعبارات مبهمة :
 « إنى راحلة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . .

وسافر شلى فى الحال إلى بريستول ، ثم عاد بأنباء سيئة .
 فقد أخذت فانى عربة المسافرين من بريستول إلى « سوانسى »
 حيث نزلت فى فندق واعتكفت لساعتها فى غرفتها ، وفى اليوم
 التالى وجدوها ميتة ، يغطى شعرها الطويل وجهها . وعلى المنضدة
 زجاجة من خلاصة الأفيون ، ورسالة بدأتها :

« إن الخيرة هى فى وضع حد لوجود مخلوق كان مولده عاثراً ،
 وما كانت حياته بعد ذلك إلا سلسلة آلام ومتاعب للذين بذلوا
 من صحتهم لإطعامه . . . قد يصيبكم العلم بموتى ببعض الحزن ،
 لكنكم لا تلبثون أن تسعدوا بنسيان مخلوقة مرت عابرة على سطح
 الأرض . . . »

زلزلت أعصاب شلى ، وتضعضع ، من موت فانى المروع .

ولمحت مسر جودوين إلى أن الفتاة قتلت نفسها بسبب حبها
الكظيم له . وعندئذ تذكر بعض علامات لتأثرها واضطرابها ،
فلعله من حيث لا يدري قد أشعل يوماً عواطفها ! . . ولعلها
رصدت ، ووزنت ، وحلت ، بقلق وعناية ، أقوالا منه ،
أو نظرات ، لم يقصد بها إلا اللطف البريء . . « ما أصعب أن
يدرك المرء العوامل التي تجيش بها صدور غيرنا ! . . ويا للآلام
التي نسبها من حيث لا نرغب ولا ندري ! . . ما أكثر ما يمر
الإنسان إلى جانب مشاعر عميقة ، وعواطف صديقة ، وأحياناً
يائسة قانطة ، دون أن يحس حتى بمجرد وجودها ! . . »

إذن ، فلا يكفي أن يكون المرء مخلصاً ، وأن تكون نياته
شريفة . إننا قد نسب من الضر والشر ، بعدم الإدراك والفهم ،
مثل ما نسب بالقسوة والظلم !

وألقت هذه الخواطر كلها بشلى في غياهب من الكآبة
لا قرار لها . . .

ولكى يسرى عن نفسه ، ويهون بعض ما به ، سافر
وحده ليقضى أياماً عند الناقد الأدبي الشاب « ليز هنت » ،
الذي سبق أن أطرى شعره وقرّظه بحماسة وفطنة . وكان هنت
يسكن في ضاحية « هامستيد » ، قرب لندن . وكانت زوجته
« ماريان » امرأة بسيطة مثقفة . ووراءها ثلثة من أطفالها الفاتنين ،

يستطيع شلى أن يرتع معهم ويلعب ..

وهناك نسي فاني وجودوين !. فلما عاد وجد في انتظاره خطابا من الناشر « هوخام » ، فتحه متطلعا ، لأنه كان قد كلفه اقتفاء أثر هارييت ، إذ انقطعت عنه أخبارها منذ شهرين : قبضت معاشها في مارس وفي سبتمبر ، على عنوان بيت أبيها وستبروك . ثم لم يُعرف شيء عنها منذ أكتوبر !

وكانت رسالة « هوخام » أن هارييت ماتت غريقة وانتشلت جثتها من نهر السربنتين !

فسافر شلى إلى لندن في حالة يرثى لها . فقد تخيل ، في رعب ، ذلك الرأس الأشقر المحيط بذلك المحيّا الوردى ، الذى طالما نظر إليه بكل ما يحمله الفؤاد من بشر والتذاذ .. تخيله وقد غطته وحول النهر ، وأدمته أمواجه ، وورمته ، وصبغته بلون الغرقى القرمزى .. وضرب أخماساً لأسداس فيما يمكن أن يكون قد حملها على إيثار ميتة شنيعة كهذه ، والتخلى عن ولديها .. وأخبره « هنت » و « هوخام » بما وقفوا عليه . وكانت جريدة التيمس قد نشرت هذا الخبر (١) :

« في يوم الثلاثاء انتشلت من « السربنتين » جثة امرأة

(١) إن كل كلمة ، وكل جملة ، وكل واقعة ، في هذا الكتاب ، من أوله إلى آخره ، قد قيلت فعلا ، أو كتبت ، أو وقعت .. ومهما يبده عجبيا فهو جزء صادق من التاريخ « ص »

ذات هيئة محترمة ، وفي حالة حمل متقدم . ووجد في أصبعها خاتم ثمين . والمفهوم أن سوء مسلكها قد أدى بها إلى هذه الفاجعة ، في حين كان زوجها خارج البلاد »

وكان ما يدور على الألسن ، في حي « كوين ستريت » :
 أن هاريت قطعت كل رجاء في عودة شلى إليها . فسلكت سبيل اليائسين . . وسقطت . . فعاشت ، مع ضابط جيش .
 ثم اتخذت لها خليلاً ضيعاً ، قيل إنه خادم ، ثم هجرها . .
 وأخذ منها أهلها ولديها ، وقطعوا كل صلة بها . وقيل إنها كانت حاملاً ، فروعت بالفضيحة القريبة المحتومة . . فألقت بنفسها في بلحة النهر . .

وقضى شلى ليلة ليلاء ... يردد لنفسه في مثل حالة الهذيان :
 — « في حالة حمل متقدم . . . » ؟ ! .. يا لها من نهاية لحياتها ! .. يا للجنون ! .. هاريت ، زوجتي ، عاهرة ! ..
 هاريت ، زوجتي ، منتحرة غريقة ، جثتها طافية ! ؟ ...
 ترى أكان مسئولاً ؟

ونبذ هذا الخاطر بكل قواه :

— لقد عملت ما كان عليّ عمله . ولما تركتها ، لم نكن على حب . وقد وفرت عليها من وسائل العيش ما كان فوق طاقتي . .
 ولم أقس في معاملتها . . إنهم أولئك « الوستبروك » الشنعاء ! ...

أكان ينبغي لى أن أضحي بحياتي وفكري لامرأة غير وفية لى !
 فأجاب عقله : « كلا » . وأجاب صاحباه هج وبيكوك ،
 اللذان أحاطا به إشفافاً ورفقاً : « كلا » . فتضرع إليهما أن
 يعيدا ذلك ويكرّراه على مسمعه ، لأنه يلمح ، من ثنانيا برق
 خلّب ، واجباً خفياً فوق طاقة البشر ، وقد أخلّ به ..
 إيه ، أيها الرأس الصغير ، يا ذا الشعر الذهبي ، والحيا
 الصبي ، لتلك الغريقة الآن .. هارييت ..

وعند الصباح كتب رسالة رقيقة إلى ماري يسألها أن تكون
 أمّاً لطفليه المسكينين : « إيانتا » و « شارل » .. ولكن محاميه أنذره
 بأن آل وستبروك يمانعون فى حضانته لهما ، بحجة أن آراءه
 الدينية ، وعيشة الخنا التى يحياها ، كليهما يجعله غير جدير بتربيتهما

— ٢٥ —

أنى لحفلة الزواج ، دينياً كان الزواج أم مدنياً ، أن تزيد
 فى هناء حبيين ، متفانين ؟ .. ولكن جودوين كان سروره لا
 حد له إذ علم بأن بنته ستصبح « امرأة شريفة : اللادى شلى » ..
 وبذلك أتم جودوين على نفسه احتقار شلى تلميذه السابق
 ومريده الآبق !

وكانت خمسة عشر يوماً قد مضت على انتشار جثة مسز

شلى من نهر السربنتين عند ما عقد قران ماري وپرسى على يد
 قسيس فى كنيسة سانت ميلورد، بحضور جودوين يهش ويهش،
 ومسر جودوين تتكلف البشر، وتلوح بالظفر!. ويوقعان،
 كلاهما، شاهدين على العقد!. وفى المساء اجتمع الشمل
 للعشاء من جديد فى سكنر ستريت. وكان الحفل العائلى تخيم
 عليه الكآبة. فى قاعة الطعام الصغيرة هذه طالما عاشت «فانى»
 وطالما تعشت «هاريت». كان شبحا الفتاتين المنتحرتين
ينغصان هناء المحتفلين!

وأبى القضاء عليه أن يسلمه ولديه شارل وإيانتا بسبب أفكاره
 الكافرة ومبادئه الخطرة. وكذلك انتزعهما من أسرة جدهما
 جودوين، وعهد بهما إلى الدكتور هيوم

* * *

اشترى شلى بيتاً فى «مارلاو». . . وأنشئت فيه مكتبة
 كبيرة، ووضعت تماثيل لقينوس إلهة الجمال وأبولو إله الشعر. .
 وكانت الحديقة واسعة، تلعب فيها مع وليم وكلارا شلى:
 «آلبا» بنت كليز من بيرون

وكان ما أصاب شلى أخيراً من ويلات قد خط على
 تقاطيعه. . فزاد جسمه ضموراً، وأعصابه اهتياجاً، وظهره
 انحناء. وزاد بالحياة تشاؤماً وتدمراً. وكان يفكر فى وضع

تاريخ ثورة مثالية شعراً ، ثورة لا تسيل فيها الدماء ، ولا تتراكم
 الأشلاء . . وإنما ثورة من صنعة محبين . . فتجربته الخاصة قد
 دلته على أن حب المرأة ، وحده ، هو الذى يمكن أن يوحى
 ببسالة عظيمة . . .

وقضى الصيف كله فى نظم القصيد . . يبحث عن صور
 الحب فى حبيبته ماري ، وفى جزر نهر « التاميز » الصغيرة ،
 وفى لوحات السماء المتجددة سحباً قاتمة ، وسحباً هاربة ، وصوراً
 صغيرة . . ثم صفاء وبهاء . .

واضطر إلى العودة إلى لندن ، عند ما عزت الدراهم ،
 وكان مكلفاً بإطعام أفواه كثيرة : ماري وولديها ، وكثير
 وبناتها . . وأسرة جودوين . . وكان يمد بمعونته كثيراً من أصدقائه
 ومعارفه أمثال ليزهنت وأسرته وبيكوك وشارل كليرمون . .
 وكان لذلك يستدين من المرايين ! . وكانت ماري ترغب أن
 يبيع شللى بيت « مارلاو » الذى تعجل شراؤه . . كانت تراه
 يشكو فيه من البرد ، وتتمنى له مناخاً أطيب وأدفأ ، كمناخ
 إيطاليا مثلاً . . فكتبت إليه فى لندن تحبذ سكنى بيت صغير
 على شاطئ البحر يتمكنان فيه من ضغط المصروفات

وكان من أسباب شكوى ماري وجود « آلبا » بالبيت .
 فقد قالوا للجيران عنها إنها بنت سيدة تعيش فى لندن بعثت

بها إليهم ، لتتحسن في الريف صحتها . . ولكن الناس جميعاً لم يلبثوا أن تبينوا من تصرفات كلير مظهر الأمومة . . ونسب بعض أهل الخير البنت إلى شلى ، باعتباره أباهاً ! . . فكادت الاتهامات القديمة تحوم حولهم ! . وتنغص عيش ماري ، مما جعلها تتمنى الرحيل إلى إيطاليا ، حتى تحمل البنت إلى أبيها اللورد بيرون . . .

وكانت أمنية شلى أيضاً أن يرحل . فروابط الأسرة ، والصدقة ، والأشغال ، قد ضربت من حوله جدراناً عالية اختنق منها . فخيل إليه أن فراره من انجلترا ، حيث فقد حقوقه المدنية بحكم كبير قضاتها ، سيجعله ، مرة أخرى ، روحاً حراً محلقاً في الهواء ، طليقاً في الأجواء . . وأن حياته في بلاد أجنبية ستكون صفحة بيضاء من غير سوء ، يستطيع أن يؤلف فيها كياناً جديداً ، كما ينظم قصيدة عصماء . .

ولما تقرر السفر طلبت ماري تعميم الأطفال في الكنيسة . فقد رأت أن الأولى لهم : بداية حياتهم ، في مستهلها ، بمراعاة العرف المتبع ، وما اصطلاح عليه المجتمع . . فوافق شلى على ذلك . . وفي اليوم نفسه عمدت كذلك بنت بيرون ، وأطلق عليها اسم « كلارا ألجرا Allegra » . . .

سماء إيطاليا الصافية الأديم ، بلا سحب . . . عادت قافلة
 الثلاثة تسير نحو أرض النسيان ، والشمس والغفران . . لم يؤثر
 على سيرها السريع أنها ، في هذه المرة ، مثقلة : بالأطفال ،
 ومربيات الأطفال . . حتى وصلوا إلى ميلانو . فألقوا عصا
 التسيار في انتظار أخبار بيرون ، وكان شلى قد كتب إليه
 يعلنه بوصول ابنته . فجاء رد دون جوان : أنه لا يريد أن يرى
 كليز ، أما صغيرته ، فهو على استعداد لتولى أمر تربيتها ،
 بشرطه الذى لا يتحول عنه : أن يكون فى ذلك السيد المطلق
 وأشار شلى على كليز بأن تعمد عن طلب أى مساعدة من
 بيرون ، بدلا من أن تعهد إليه أمر الطفلة . بيد أن كليز كانت
 متكبرة ، تريد لبنتها مزايا لا يستهان بها ، وكانت شديدة الثقة
 فى المربية السويسرية « إليز » التى تولت الصغيرة ، فقررت
 أن تبعث بهما معاً إلى فينيس . وبرغم اعتراضات شلى الرقيقة
 سلمت اللجرا إلى أبيها

* * *

ولكن بيرون لم يحتفظ بالطفلة عنده إلا بضعة أسابيع . ثم
 عهد بها إلى مسز هوبنر ، زوجة القنصل الإنجليزى فى فينيس .

غير أن كليز بدأت تفرع سن الندم ، ورأى شلى أن يصحبها إلى فينس . وقصدا خفية بيت هوبنر ، حتى لا يتضايق بيرون ويسخط ، فاستقبلهما القنصل وزوجه بركة ودماثة . وبعثت زوجته في طلب المربية والطفلة . وكانت ألجرا قد نمت ، ولكنها شحبت ، وفقدت حيويتها السابقة ، وإن كانت ما زالت آية جمال . .

وجرى الحديث طويلا عن بيرون . فإنه ، بعد يومين من وصوله ، قد حصل على جندول : وخليفة ، هي «ماريانا سيجاتي» ، زوجة تاجر أقمشة ، أجرة للشاعر الكريم في بيته غرفاً مفروشة . وكان لذلك خطره ، وكان له ما بعده . . ولكن تجارة الأقمشة لم تكن رائجة ! . . وكانت المرأة في الثانية والعشرين ، ذات عينين سوداوين مدهشتين ، وصوت شجي رخم ! . . أما تاجر البندقية ، فقد كان يرى «الدوقيات» تسيل من بين أصابع اللورد . . وكانت أخلاق المدينة الشهيرة تسمح ، على الأقل ، بعشيق واحد ! . .

روت هوبنر ، المرأة الرقيقة ، ذات العينين الذكيتين ، هذه الحكاية ، بالحسرة والاستطابة اللتين تبرز بهما النساء العفيفات حديثهن عادة عن الرذيلة . . وروى زوجها متحرراً أن أهل البندقية يتناكرون أن السيد الإنجليزي لم يكتف بملهمة

واحدة للشعر ، فاكترى فى الخفاء فيلا حشد فيها منهم تسعاً ! ..
وتحدث بذلك الركبان ! .. والناس ينظرون ويعجبون ، فى
حفلات الكرنفال ، بالنساء المقنعات المتكرات ، يتعلقن
بيرون ، ويتصيدن أنفسهن له ! ..

وقصد شلى لزيارة بيرون فى قصره ، فاستقبله بجملة ..
ولعل شلى كان الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يرضى بيرون
بالتحدث إليه بجد ، حديث الند للند ، وقدّر شواغل كبير ،
وإن اعتذر بأنه لا يستطيع التخلّى عن « ألاجرا » ، وإلا زاد
البندقيون ، على اتهامهم إياه بأنه هوأى ، تهمة الزهد فى ابنته
الطفلة .. على أنه سيفكر فى الأمر ملياً ، ويجد سبيلاً للتوفيق ..
ثم اقترح على شلى ركوب الخيل فى نزهة إلى « الليدو » ..

ورأى لشلى هذه الرمال ، ترمح فيها الجياد ، فى وسط الأمواج
ونظر بيرون إلى البندقية ، على ضوء الشفق القانى ، وقد
صارت ورداً ورماداً .. وقال :

— إننا سنموت شباباً .. وسواء علىّ دقت الساعة اليوم أو
غداً .. ولكننى أريد أن أستمتع بشبابى ..

وفى اليوم التالى عرض بيرون التنازل لشلى وكبير ، لمدة
شهرين ، عن فيلا له قرب البندقية ، تبقى فيها كريمته ألاجرا
بعد ذلك . فلم يسع شلى إلا قبول هذه الاقتراحات السخية ..

وكتب إلى ماري لتلحق به بلا تأخير

وكانت رحلة ماري مضنية . ففي « فوزينا » لاقت صعوبات بسبب جواز سفرها ، عاقبتها طويلاً . وكانت كلارا الصغيرة تبدل أسنانها ، وتآلم كثيراً من الحر والتعب ، وتغيير اللبن . . ووصلت مريضة إلى « فيلا داست Este » : فيلا بيرون الموعودة . وظلت تعاني الحمى خمسة عشر يوماً . وكان طبيب البلدة غيباً ، فاعتزم شللى وماري أخذ الطفلة إلى البندقية لاستشارة طبيب أفضل منه . ولكن « كا » الصغيرة أصيبت برعشة غريبة في الفم والعينين ، وظلت طوال السفر غائبة عن الصواب . ثم زادت الأعراض ، وجاء الطبيب إلى الفندق ، فلم يجد في شفائها أملاً . وبعد ساعة ماتت دون احتضار . . . كانت « لافورنارينا » ، آخر محظيات بيرون ، امرأة فلاحية ، وجهها مثال الحسن البندقي القديم . وكان بيرون قد ذكرها لشللى بقوله : « سوف ترى كم هي جميلة : عينان نجلوان سوداوان ، وجسم ثعباني ، وشعر متموج ، يتألق تحت ضوء القمر .. امرأة تذهب في سبيل الهوى حتى الجحيم .. إني أحب هذا النوع من الحيوان ، وأؤثره على نساء العالم جميعاً ! .. » كانت حيواناً غريباً ، لا يسلس له قياد . متوحشة يرتاع منها الخدم ، حتى « تيتا » العملاق جندولي الشاعر . . كانت

هذه المرأة غيوراً لا تطاق ، زائفة كالشيطان ، وقد أصرت على أن تستبدل بنقابها الشفاف وشالها الجميل الفساتين الحديثة ، والقبعات التي يرفرف عليها ريش النعام ، تلك التي يلتقي بها يبيرون إلى النار بمجرد شرائها إياها ، فتذهب وتشتري سواها . ولكنه كان يغتفر حماقتها ، لأنها تدخل على قلبه السرور . . فهو يحب منها : حيويتها ، ولحجتها الفينيسية ، وعنفها . كانت طبيعتها ، الفظة ، الغليظة ، البهيمة ، تريخه من الجهد العقلي . وكان شعره يتقدم بفضلها تقدماً بديعاً مطرداً ، شبيهاً بلحج البحر الخضم ، وصباة المرأة العاشقة . . .

وما كانت هذه الحيوانة الخلفة ، إلا لتسوء شلمى وزوجه ، وفي خلال بضعة الأيام التي قضوها في البندقية وقف شلمى على حياة يبيرون عن كذب ، وحكم عليها حكماً صارماً . فالشاعر قد أباح لتهتكه العنان ، وأطلق بحجارة جندوله يلتقطون له النساء من الشوارع . . ثم ازدري نفسه ، فأعلن أن الإنسان مزدري . . ولم تعد سخريته ، في نظر شلمى ، إلا قناعاً رقيقاً لحيوانيته !

وأن ليبيرون أن يستعيد الثيلا ، ويسترد ابنته الأجر . وكان الجو البارد الماطر يدفع شلمى نحو الجنوب . فقد كان بحاجة إلى

الدفء واللفظ والصفاء . . كانت الأجواء المجهولة لديه ،
والمدن الحديدية عليه ، تخدع حزنه ، وتكشف كربه
وكان طريق روما يتعاطف بين الكروم التي احمرت أعناقها .
وفي كل خطوة يشهد المسافرون قطعاناً من ثيران بديعة بيضاء
كالخليب . فلما دخلوا المدينة حلق صقر هائل بجناحيه فوق
رؤوسهم . . . وراعههم من روما جلال الحزن النخيم على الأطلال
قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد

أن للملك خالقاً سبحانه ! . . .
وقصدوا لزيارة المقبرة الإنجليزية ، فبدت لشلى أجمل وأهدأ
مقبرة رآها في حياته . كان الهواء يهمس في أوراق الأشجار
المشرقة على الأجداث ، وكان أكثرها أجداث نساء وأحداث ..
فإذا لم يكن من الموت بد ، فهنا يتمنى المرء لو ينام . . .
وبعد سفر ثلاثة أسابيع وصلوا إلى نابولي ، واستأجروا مسكناً
مشرقاً على الخليج الأزرق . . وأصبحت وحدتهم الدائمة عبئاً
ثقيلاً ينوعون به . وتذكروا بلادهم ، وحنوا إلى : وندسور ،
ومارلاو ، ولندن نفسها . فما هذه الجبال الشاخمة ، وهذه السماء
الصافية ، بغير صديق ؟ ! إن مسرات المجتمع هي مبدأ
الوجود ومنتهاه . . وكل هذه المناظر ، مهما تبد رائحة ، تتلاشى
من صفحة الفؤاد ، كدخان تبده الرياح ، إذا ما فكر المرء

فى المشاهد المألوفة ، التى مهما تكن عادية ، أو تافهة ، فهى ممتزجة بألوان من المودة البهيجة . . .

وكانت مارى تشكو من أنها ، فى كل مكان ، تعدّ « الأجنبية » ! .. وكانت فى مستهل حمل جديد . وأصبحت كلير عندها لا تطاق . وقد غدر خادمها باولو بالمربية السويسرية ! فأرغمته مارى على الزواج منها ، ففعل وأخذها ورحل .. ثم أصيبت كلير بمرض شديد خفى ، مرض غريب لم تفهمه مارى . . .

فبرموا بنابولى ، وعادوا إلى روما . ولكن حرارة الربيع فى روما أتعبت ولیم الصغير ، فأشار الطبيب بنقله سريعاً إلى الشمال . . فهمموا بالسفر .. وإذا به يصاب فجأة بدوسنطاريا حادة . وظل شلى ، مدى ستين ساعة ، لا يترك يد ولده الصغير الحبيب . فقد كان يزداد به تعلقاً . وكان صبيّاً ذكياً ، حنوناً ، حساساً . شعره أشقر كالحرير ، وبشرته شفافة كالورد ، وعيناه زرقاوان متألقتان كعيني شلى ... وصار فى النزاع ، وما زال الطبيب يأمل فى إنقاذه . فعاش ثلاثة أيام سوياً ، ثم قضى نحبه ، والشمس رأد الضحى . . .

ودفنه فى المقبرة الإنجليزية ، التى كان أبوه عندما مر بروما قد أعجب برونقها وهدهدها . . ورأى شلى ولده يختفى تحت رقعة من الأرض ، زانها الزهر والعشب والشمس

« فاني » .. « هارييت » .. « كلارا الصغيرة » .. « وليم »
 لقد خيل إليه أنه محوط بجو موبوء وبيل ، يصيب كل
 الذين يحبهم ، واحداً بعد واحد !

أما ماري فإنها ، في هذه المرة ، خرت صريعة ، وتخلت
 عن النضال . فأخذها شلى إلى الريف ، وأسكنها فيلا جميلة . .
 وكان قد استوى عندها كل شيء . . كانت تفكر دائماً ،
 وترى تينك القدمين الصغيرتين تجريان على رمال شواطئ
 نابولي ، وتسمع العبارات الساذجة الشائقة ، التي تعبر أجل تعبير
 عن : الحب ، والعُجب ، والمرح . . وتجلس جامدة في مكانها
 تحلق بعينها في الفضاء البعيد ذاهلة ، لا تخرج عن صمتها
 إلا لتزور قبر وحيدها . .

وكان شلى كذلك يشكو منها إليها ، ويألم . . ولم يصبه ما
 أصابها . . فقد كان — وكأنه « آرييل » : روح الهواء ،
 المخلق في سماواته — ينظم الشعر ، ويصف نضال الروح ضد
 المادة ، نضال الرجل الحر ضد المجتمع . وإذا ما هبت عليه أحزان
 ماري سأل الرياح أن تجعل منه قيثارتها ، وتنفخ فيه من روحها !
 ولما آن لماري أن تضع حملها قصدوا فلورنسا ، ليكونوا على
 مقربة من طبيب بارع . ولكن أبرع طبيب كان فلورنسا نفسها ،
 المدينة التي ليست للوحدة فيها وحشة . فيها اجتمعت أرواح

الشعراء والفنانين : يعيش المرء فيها مع « دانتي » ، ويجلس إلى جانب « سافونارولا » ، ويرى « جيوتو » يعبر السبيل !
 فى هذا الجو الروحى استردت مارى بعض مزاج الحياة..
 واختلطت فى المنزل العائلى بالسكان . وجاء الوضع سهلاً سريعاً .
 وعند ما رأت نفسها ، من جديد ، وعلى ذراعيها طفل ، تبسمت
 لأول مرة منذ مات وليم ، ودعت ولدها : « برسى فلورنس » ...

— ٢٨ —

بدأ شلى يشكو ألماً فى جنبه . فقد أثر فيه هواء جبال
 الأبنين ، الذى يهب بشدة فى الشتاء على فلورنسا . . ونصحته
 الطبيب بالسفر إلى بيزا . . وهناك لحق به أحد أبناء عمه :
 « توم مدوين » ، وهو ضابط سابق فى جيش الهند ، مفتون
 بالأدب ، خطر له أن ينشد عشرة الأديب الوحيد فى الأسرة !..
 وقد عرف شلى بزوجين ظريفيين : إدوارد وليامز وقرينته .
 وكان وليامز هذا ، مثل مدوين ، ضابطاً قديماً فى فرقة الفرسان
 بالهند ، ثم اعتزل الخدمة . وكان شاباً غاية فى الصراحة والتبسط ،
 شديد التطلع للمعرفة . فأعجب به شلى ومارى ، و بدت لهما
 زوجته الجميلة آية فى رقة الحاشية ودمائة الطبع . وكانت
 موسيقية بارعة . وأصبح البيتان على ود عظيم . .

وانضم لصحبته إيرلندي يدعى « الكونت تاف » . ويوناني هو الأمير « مافرو كورداتو » . وقسيس إيطالي شيطاني عجيب ، يدعى الأستاذ الأب الموقر « باكياني Pacciani » ، ويطلق عليه اسم « إبليس بيزا » : أسقف بلا دين ، وبروفسور بلا كرسي ، ومن كبار هواة النساء واللوحات والأنتيكات ، وخبير ، ومثمن ، وسمسار عالمي يجد دائماً قصراً للإيجار ويأخذ أتعابه من المستأجر ومن المالك ، ويوصي بمعلم للغة الإيطالية يقتسم وإياه أجر الدروس ، ويهمس في أذن السائح الإنجليزي المار بالبنديقية بعنوان « المركيز » الذي يريد أن يبيع لوحة زيتية قيمة قديمة ! . . ثم هو الرجل الذي يرفع الكلفة ويصبح على ألفة وثيقة مع أى بيت بمجرد أن يضع قدمه فيه ! . . وكان هذا القس يطلق على كل من مارى وصاحبته اسم : « الإنجليزية الجميلة » ، ويروح عنهما بحكايات العائلات الكبيرة فى بيزا ، وأسرار سيدات الطبقة الراقية ، اللواتى هو لمن الصديق الوديع ، يستودعنه خوالج ضعفهن ، وهو لمن الأب المحترم ، يفضين إليه باعترافهن ! . . .

وأثرت إحدى روايات القس باكياني فى شلى تأثيراً شديداً : — الكونت فيثياني من كبار أعيان فلورنسا ، تزوج ، للمرة الثانية ، من امرأة تصغره بكثير . . وكان له من زوجته

الأولى فتاتان فتانتان ، غارت الكونتس الجديدة من جمالهما ، فأقنعت زوجها بإرسالها إلى بيزا ، وإدخال كل واحدة منهما في دير ، حتى تجدا عروسين يقبلان البناء بهما بلا مهر !

وكان البروفسور باكيانى ، الذى عرف الفتاتين منذ طفولتهما ، يتحدث بحماسة عن جمالهما الرائع ، وروحهما الجذاب ، ونوه خاصة بالكبرى التى كانت نابغية .. قال :

— يا للمسكينة « إميليا » ! .. إنها هناك ، بين جدران الدير ، كأنها عصفور فى قفص .. ترى شبابها يبلى بلا هوى ، هى التى خلقت للحب والجوى ! .. بالأمس ، نصحت بالماء زهوراً فى صومعتها ، قائلة لها : « أجل .. أنت ولدت لتبتى ، وتورق .. أما نحن ، المخلوقات المفكرة ، فقد جبلنا لتتحرك ، ونعمل ، لا لنذبل ، ونيبس » .. وهذا الدير ، دير سانت آن ، مكان فظيع ، ترتجف نزيلاته الآن من البرد !

هذه الرواية أيقظت فى شلى مشاعر الفارس الشارد المغوار ، فوجه ألف سؤال ، وأظهر أشد الاشتمزاز من الكونت الشيخ ، وغاية الاهتمام بالشهيدة الجميلة ...

لم يستطع باكيانى أن يقاوم لذة الجمع بينها وبين شلى .. تلك اللذة التى تصيب بدائها بعض العجائز ، فيحبون أن يروا كل الشباب الأحبة : اثنين اثنين .. فاقترح على شلى أن

يأخذه إلى دير سانت آن . . .

لم يكن القس قد بالغ في وصف جمالها ، فهذا شعرها الأسود معقوص في عقدة بسيطة ، كإحدى إلهات الإغريق الملهمات ..
ومحيّاها كامل الحسن ، وشحوب بشرتها يزيد في تألق عينيها النجلاوين ، السوداوين ، الممتملئين بنعاس الاشتها . .
ذاك الذى تفوق بعض الإيطاليات فيه الشرقيات . . .

أحس شللى أنه يحبها . ولم يكن الحب عنده اشتهاً بديئاً ، وإنما هو حاجة إلى التضحية بالنفس لمن تعجب به .. فهو دائماً يعيش فى تلك الأسطورة التى تمثل امرأة فاتنة مضطهدة يكون هو لها الفارس المنقذ . . . أسطورة كانت فى الصميم من كل مشاعر الحب التى عاناها ، والتى حملته على خطف هارييت ، لينقذها من اضطهاد أبيها .. والتى جعلته يحب ماري لأنها كانت تعسة .. مزيج من النسب ، التى يجهلها هو نفسه .. من الاشتها والشفقة .. من الخيال والرحمة .. عاطفة عرف كيف ينقيها ويرفعها ، وعرفت كيف تحرك وتثير كوامن قوته الخالقة للشعر ، إلى أقصى حدود الخلق والإبداع ...
ولما دخلت إميلييا قاعة الاستقبال اتجهت إلى عصفور هناك فى قفص ، وقالت :

— « أيها الطائر الصغير المسكين ! أنت تموت من الضنى ! .. »

ولشد ما أشفق عليك ، وأرثى لك ! . لشد ما تشكو وتعانى ، إذ
تسمع أترابك ، فى جماعات ، تناديك ، قبلما ترحل على
بساط الريح إلى بلاد مجهولة ! .. أنت مثلى ، كُتِبَ عليك أن
تقضى هنا ، فى هذا السجن ، حظك الكئيب من الأيام ..
أواه ! .. لماذا لا أستطيع إطلاق سراحك ، وإخلاء سبيلك ؟ ! »
فرأى فيها شلى امرأة نابغة شاعرية . ولم يخف عن
مارى العواطف التى خالجتها ، فعرفت فى هذا الحب
مجرد تأمل فى « الجمال الأعلى » .. وكانت مع ذلك تؤثر
أن لو اتجه هذا التأمل إلى تمثال ، أو لو أن شلى فعل ما فعله
« دانتى » ، لم يتح له قط أن يخاطب معبودته « بياتريس » ..
على أنها صحبتته فى زيارة السجينة الجميلة راضية ..
وراح شلى يبنى حول إميليا عالماً من تلك العوالم الخيالية ،
التي يحب الفرار إليها والالتجاء .. يضع لها قصيدة حب عظيمة ،
على نهج أشعار دانتى ، أو أناشيد شكسبير .. يجعل فيها من
إميليا : صورة ، ليست إلا آلاء الجمال السجينة ، وتمجيداً
لشخصها المعبود ، الذى يختلج إحساساً ونعماً ، وراء الجدران ،
اختلاج البدر وراء السحاب ..

وبينا كان هذا العاشق الأفلاطونى يبنى عالماً بعد عالم من
خيالاته ، تلقت إميليا من أبيها الكونت فيثيانى رسالة يقول فيها

إنه وجد زوجاً يرضى بها بلا « دوطه » . ولم يكن في هذا الزوج المدعو « بيوندى » ما يغرى به . . فهو يعيش في قصر بعيد ، تكتنفه المستنقعات . لم تره قط ، وليس لها أن تراه قبل يوم الزفاف . وكانت هذه الخطبة على الطريقة التركية القديمة مما تشمئز له إميليا . . ولكن ماذا تنتظر بعد من دهرها ؟ . . وقبلما يتم شلى قصيدته عرف أن إميليا تزوجت ! . .

— ٢٩ —

ظلت كلير ، خلال الأيام الأولى التي تلت سفرها من البندقية ، تتلقى أخبار ابنتها ألجرا بانتظام على يد هوبنر وزوجته . فعرفت أن الصغيرة تشكو البرد ، وقد أصبحت هادئة رزينة ، كما لو كانت امرأة كبيرة . وكان من رأى هوبنر نقلها من فينيس . ولكن كان من المستحيل مفاتحة أبيها في أمر نافع ، وهو الذى يزداد استهتاراً واندفاعاً في الدعارة !

ثم انقضت بضعة أشهر بلا خبر . فاشتد القلق بكلير ، وكتبت إلى هوبنر الرسائل تلو الرسائل دون أن تحصل على رد . . ثم علمت بحدوث انقلاب كبير في حياة بيرون ، فقد أصابه مرض خطير ألزمه الفراش . واضطر إلى طرد الفتيات المحتالات اللواتى أضنين حاله ، ونهبن ماله . . ولم يكذبيل حتى شهدته

ثانية محافل فنيس ومجتمعاتها ، وهناك لقي أجمل امرأة في الموسم ، الكونتس الشابة تريزا جويتشيولى ، الحسناء ، الشقراء ، الشائقة ، ذات السبعة عشر ربيعاً . . التى تزوجت لعامها من كونت نبيل شاب قرناه . ومن اليوم الأول دس بيرون فى يدها ورقة كانت موعداً . وكان ذلك الذى قال بحبه إياها شاعراً عظيماً ، وفتياً جميلاً ، وغنياً نبيلًا ... وهكذا أحاطت بها كل العوامل التى تجعل للحياة طعماً ، فاستسلمت له ، بغير تمنع . . .

وبعد بضعة أيام أخذ الكونت جويتشيولى زوجته إلى « رافنا » . فتوسلت إلى بيرون أن يلحق بها .. وكان رأيه : « أن الساحرة تنسى أنها تستطيع من قبل أن تصفر لأى رجل ، فيتبعها إلى أى مكان .. أما بعد ! ... »

كان لا يطبق فكرة الحب الهوام ، الثابت ، الطويل المقام .. فلم يحرك ساكناً .. وكان برفضه فخوراً !

فكتبت إليه من رافنا بأنها مريضة جداً ، فلم يخب النداء إلى الشفقة حيث خاب النداء إلى الحب . فلبى النداء فى الحال ، وشد إليها الرجال .. إن الليبات من النساء ، كاللادى بيرون ، أو كلير ، يتعبنه ويضجرنه . كان يحتقرهن إلى حد لا يسأل معه خليلة له : أن تكون رفيقة فكر ، أو خدينة روح . وكذلك زوجات الحبازين ، ونساء تجار البندقية ، هن من

طبقة غير طبقته ، ومن نوع دون نوعه بكثير . . لكن الكونتس جويتشيولى ، وقد جمعت بين البلاهة الحنون ، ودماثة الأصل الكريم ، أمسكت فيه ، دون عناء كبير ، بتلايب دون جوان ، وعلقت بجبالها جواب الآفاق . . وأصبح دون جوان ممرضاً مخلصاً ، ملازماً فراشها ، يناولها الدواء ، ويدوب من العطف والاشتهاء . ولا اضطرت الغالبة المغلوبة أن تغادر راقنا إلى پولونى ، مع زوجها ، تبعها . . لقد أصبح لها « الفارس الخادم » المقطور فى ركابها !

علمت كلير بهذه الحكاية كلها ، وأن بيرون قد أمر بإحضار ألجرا إلى بلدة پولونى . وراعها أن ترى بنتها تعيش فى بيت خلية بيرون الحديدية ، فكتبت خطاباً محتدداً ، تطالب فيه باسترداد بنتها . فجاء رد بيرون بأنه لن يتركها بعد الآن لتموت من الجوع ، أو من الفاكهة الفجة . . أولتنشأ فى بيت شالى على الاعتقاد بأن الله غير موجود . . وقال إنه ينوى أن يضعها فى دير ! . . فوجهت كلير إلى بيرون رسائل يائسة ، لاذعة ، تكاد تكون مهينة مقدعة . . فكتب إلى شلى يشكو هذا منها ، فرد شلى عاتباً عليه تأثيره بهذه السفاسف من كلير التى حملها إلى ذلك شقاؤها ، وحرمانها من بنتها ، وأنها أولى بالعطف والصفح منها بالعقوبة والملام . وكان شلى فى حاجة إلى هذا الترفع فى وجهة النظر ،

ليتغلب على ما حوله من نكد العيش : ماري تزداد أعصابها هياجاً، يوماً بعد يوم . وجودوين يرهقه بمطالبه المالية ، حتى لقد اعتزم ألا يليها بعد !

ولما كانت رسائل الملام والمطالبة بالمال ، التي يوجهها وجودوين إلى ابنته ماري ، تنكد عيشها ، فقد انبرى شلى ينذر هذا الفيلسوف العَجْز ، بأنه ، منذ الآن ، سيحول دون تسليم ماري رسائل أبيها ، إذا ما ظلت رسائله وفقاً على شؤون المال والسؤال ! « آرييل » ، روح الهواء ، قد بدأ يحدت ويشدد ، ويعالج شؤون الغبراء ! ..

ورحلت كلير أخيراً إلى فاورنسا ، لتشتغل في وظيفة مربية . . وكتب إليها شلى رسائل عاطفية طويلة ، لكنها بريئة ومع ذلك لم يطلع ماري عليها ، ورجا كلير ألا تشير إليها عندما تكتب إلى أختها . وكان لهذا الإخفاء غضاضة وحزة في نفسه ، كان الحب عنده اشتراكاً مشاعاً في الأفكار والأفعال ، بحيث لا تكون ثمة حاجة بين المحبين إلى تفسير . . بيد أن الحياة علمته أن الكمال لا وجود له ، وأن عليه قبول ما هو دون ذلك . . وعلمته أن الحقيقة النقية ، الخالصة ، الصميمة ، هي بالنسبة لبعض النفوس سم زعاف . .

- ٣٠ -

من ر . ب . هوبنر ، إلى اللورد بيرون

فنيس - ١٦ سبتمبر ١٨٢٠

أراك مندهشاً ، وبحق ، من تغيير رأيي في « شيلو^(١) » .
ولكن إذا أنا كشفت لك عن السر الشنيع ، فذلك لاعتمادى
على أنك ستخفى أمر الإحاطة به عن شلى وأهله ، إكراماً
لزوجته التعسة ، ورعاية لى ولزوجتى . وإني واثق أنك
عندما تعرف الحقيقة سوف تتشدد فى تصميمك
النبيل على ألا تعهد بالأجرا إلى أمها . . . إنه عندما كان
آل شلى يقيمون هنا كانت كلير حاملا من شلى . ومهما
يكن من الأمر فقد رحلوا إلى نابولى ، حيث دعى إليها شلى ،
ذات ليلة ، ليكون إلى جوار كلير المريضة جداً . ووجدت
زوجته بالطبع غريبة فى أن يدعى هو من دونها . ! وبعثوا فى
طلب مولدة نفحاهما بالمال لتحمل المخلوق المنكود الذى جاء إلى
الدنيا إلى ملجأ اللقطاء بعد نصف ساعة من مولده . .
واضطر إلى شراء صمت الطبيب كذلك بمبلغ جسيم !
وظلت مسر شلى ، خلال مرض كلير ، فى أشد القلق

(١) كناية أطلقها بيرون على شلى

عليها ، دون أن تستطيع الدنو منها . فقد كان هذان الفظَّان يعاملانها بغلظة ، وعملت كثير ما لا يعمل لتحمل شللى على هجر زوجته المسكينة التى لم تعرف شيئاً من مغامرة نابولى . وقد عرفنا هذه الحكاية كلها من المربية السويسرية « إيلز ! »

أعتقد ، بعد هذا ، أنك لا تدهش من سوء ظنى بشللى . إنى أعترف بكفايته ومواهبه . . لكنى ما كنت أتصور — كما تقول — أن يكون الرجل « مهوَّساً ضد الخلق » ويكون له شرف .. وقد سمعت كلاماً عن شرف اللصوص ، لكن هذا لا يعنى إلا مصلحتهم الذاتية . . كذلك مهما يكن من مصلحة شللى الظهور بمظهر محترم ، قدر الطاقة ، مع الآراء التى يبديها علانية ، فمن الجلىّ عندى أنه لا يستوحى الشرف فى أى فعل منفعاله

من بيرون إلى هوبنر

حكاية « شيلو » صحيحة ، وإن كانت « إيلز » ليست إلا « شاهد ملك » . . وهذا هو نحوهم ومجرى حياتهم . ثق أننى سأستمع إلى نصحك . .

جاء شللى إلى رافنّا ، فقد دعاه بيرون ليحدثه فى شؤون هامة .

فوجد شلى أن دون جوان فى خير حال . . فالوجه الذى كان
مضى من الإسراف فى الموبقات قد استرد نصرته . ذلك أن
حكم الكونتس تريزا جويتشيولى قد أنقذه من دعاره البندقية المشينة
واستقبله بيرون بترحاب وحفاوة حارة . وقضى الصديقان
الليل كله فى تلاوة أشعار بيرون ومناقشتها . وبدأت لشلى أغاريد
دون جوان الجديدة غاية فى الإبداع . وكان احتكاكه بعبقرية
بيرون يحمله دائماً على القنوط . فقد كانت أشعاره ، بجانب
أشعار بيرون الجزلة العامرة ، تبدو له سقيمة . فيقول لبيرون
إنه يراه خليقاً بوضع ملحمة تكون لجيلنا هذا بمنزلة الإلياذة
للإغريق . وبيرون يتظاهر باحتقار الأجيال القادمة ، وعدم
الاهتمام بالشعر إلا إذا عادت عليه القصيدة بألف من الجنيات !
ولم يكن بيرون يتحدث إلا عن أشعاره . ومنذ أول يوم ،
وبكل مظاهر الود الصادق ، روى لشلى حكايات الفضائح التى
تجرى بين التزلاء الإنجليز فى إيطاليا . وأطلعته شلى على الخطاب
الذى يتضمن اتهامات المربية السويسرية إليز . وقال إنه لم
يصدق قط شيئاً من تلك الحكاية السخيفة ! . .

اضطرم قلب شلى حزناً ، وقبض رجاءه من الخير فى الدنيا .
فكتب من فوره إلى امرأته يخبرها بما تقولته عليه إليز ، ويرجوها
أن تكتب إلى هوبنر رسالة تدحض فيها هذا الاتهام ، وتبرهن

على كذبه .. واستجابت ماري لرجائه ، وكتبت الرسالة المنشودة ، وأرسلتها لزوجها ، لكي يبعث بها إلى هو بن بنفسه بعد أن يقرأها . كانت المسألة الهامة التي أراد بيرون أن يحدث شللى في صدها هي مصير اللجرا إذا ما غادر بيرون مدينة راثنا . فالكونتس جويتشوى ترغب في السفر إلى سويسرا ، وبيرون يفضل البقاء في توسكانيا .. ورجا من شللى أن يكتب إلى الكونتس ، ليصور لها حياة فلورنسا وبيزا بطريقة جذابة ، لكي تقبل الذهاب إلى هذه أو تلك ..

وجاء خطابه من قوة التأثير بحيث فعل في الحال ، فعله . فتقرر بغتة سفر بيرون وصاحبته إلى بيزا ، حيث يعيش شللى وزوجه . أما اللجرا فقد قبل بيرون أخذها معه ما دامت كلير ليست هناك

وذهب شللى قبل مغادرته راثنا لرؤية الطفلة في دير « مانيا كافاللو » . فوجد لها زادت طولاً ، ورقة ، وشحوباً . يتهدل شعرها الأسود الجميل في حلقات على كتفها . وبدت بين رفيقاتها كمخلوقة من جنس أرقى وأنبىل ... وحل لون من الجلد الساهم محل حيويتها السابقة . وكانت الخلة البارزة فيها ، في نظر شللى ، هي الغرور ، كانت تربيتها ناقصة ، لكنها تحفظ صلوات عديدة عن ظهر قلب ، وتتحدث عن الجنة ، وتحلم

بها ، وتعرف قائمة لا نهاية لها بأسماء القديسين . . وكانت هذه
هى التربية التى تروق لبيرون . . .

— ٣٢ —

أثار قرب تشريف اللورد الشهير ، فى نوادى بيزا ، ماثيره
عادة الرحلات الملكية . واستأجرت مارى ، كما رغب إليها شلى ،
أجمل بيت خال فى البلد : « قصر لانفرانكى » . وما لبثت أن
بدت الطلائع ، فوصلت الكونتس جويتشيولى مع أبيها الكونت
جامبا . . واستقبلهما شلى ومارى . فبهرتما ، وطابت لهما ، هذه
الحسنة الإيطالية الشابة ، الفياضة العاطفة ، الساذجة . . فقال شلى :
— إنها امرأة رائعة الجمال ، وإذا كنت أعرف شيئاً من
طبيعة البشر ، ومن طبيعة صاحبي بيرون ، فلسوف تندم يوماً ،
إن قريباً وإن بعيداً ، على طيشها . .

وأخيراً جاء دون جوان نفسه ، وأصبح هو المحور
الاجتماعى لفريق بيزا الصغير ، وظل شلى المحور المعنوى . .
فكانوا يقصدون بيرون تطلعاً وإعجاباً ، ويقصدون شلى
ميلاً وعطفاً . وكان شلى ينهض فى ساعة مبكرة جداً ،
ويقرأ حتى الظهر : « جيته » ، أو « سبينوزا » ، أو « كالدرون » . .
ثم ينطلق إلى غابة الصنوبر ، يعمل فى هدوء تام حتى المساء .

فى حين ينهض بيرون من رقاده عند الظهر ، ويتناول فطوراً خفيفاً ، ويخرج للتنزه على حصانه . ويتمرن على إطلاق غدارته . وفى المساء يزور خليلته . . ثم يعود فى الساعة الحادية عشرة ، فيعكف على العمل : يظل ينظم حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . وعند ما يأوى إلى فراشه ، محموراً ، مهتاجاً ، ينام نوماً متقطعاً ، ويبقى فى السرير ضحوة النهار

وهرعت إليه الجالية الإنجليزية فى بيزا ، لا يمالك أشد المترمتين أنفسهم من الشوق إلى هذا اللورد المطبوع الأصيل ، الذى يحمل إليهم ، فى أرض أجنبية ، لمحة شائقة من معرض الخيلاء البريطانى !

كان شلى يتضجر من المجتمعات ، ولا يخفى ضجره وسأمته ..
وكان عندهم روحاً محلقاً فى أجواء علوية ، تنشذ كمال البشرية ! ..
وهو أشد إيماناً بالفداء منه بالخطيئة الأصلية ، مما لا يكاد
يعتفقه المجتمع اللاهئ ، أو يرتاح إليه ! ..

وكانت السيدة المرحمة « مسز بيكت Beckett » تقيم حفلات راقصة ، لأنها ، كما يقول بيرون ، « مبتلاة بسبع فتيات ، كلهن فى السن التى لا بد فيها لهذه الحيوانات من أن ترقص من أجل معاشها ! » ..

وتصر مارى على أن تشهد إحدى هذه الحفلات !

وتذهب يوماً إلى الكنيسة الإنجليزية ، لسماع الوعظ .. فيروعها
أن القس البروتستانتي يحمل على الملحنين ، ونظره لا يفارقها ،
بطريقة ظاهره .. حتى إنها ، رغم رغبتها في الامتثال ، أبت
عليها كرامتها ، كزوجة لشللى ، أن تعود كرة أخرى !
وكانت هذه الشواغل الاجتماعية ، والحفلات الراقصة ،
والمآدب الحافلة ، تلوح لشللى مبتذلة إلى حد لا يتصوره عقله ..
هذه الحياة الطائشة ، بدت له ، من قبل ، إجراماً ، وهو
حدّث في سن العشرين . وها هى ذى الآن تبدوله أشد نكراً ،
وأدعى إلى الاحتقار .. وكان يهرب من عتب ماري إلى دار «وليامز»
حيث يحس أنه يعثر ثانية على الانسجام الروحي ، والجو الحنون ،
الذى كان ألزم ما يكون له . كان إدوارد وليامز رجلاً مرحاً ،
كريمياً ، ليس فيه من الصغار ذرة . أما زوجته جين فكانت
رقياً ، ونعومتها ، وهدوء حركاتها ، وشجى صوته ، مما تراح
إليه النفس ، كما تراح إلى الحديقة الغناء .. ولو كان شللى
يومئذ في سن العشرين لما راقته بمقدار ما تروقه الآن .. كان إذ ذاك
يحلم بعذراء متحمسة بأسلة .. بيد أنه الآن لا ينشد غير نعمة
الغفران والنسيان ..
كانت تغنى .. فيحمله صوتها الجميل بعيداً عن ذكرياته
الآسية ، وعيشته الزوجية الفاترة ..

وكان إدوارد وجين زوجين متحابين سعيدين ، وكان لا بد
لهما من شللى ، « آريل » الوفى ، « روح الهواء » ، الذى يخفق
ويحلق ويدور حولهما .. فلا بأس من أن يحوم روح نقي ، أسير ،
حزين ، كالحارس ، حول هناء المحبين . . .

وكثيرا ما تحدثا إلى شللى عن صديق لهما يدعى « تريلاوفى » ،
رجل عجيب ، جوّاب بحار ، وقرصان .. بلغ من مغامراته أن
قطع الأرض طولا وعرضا ، رطباً ويابساً ، ولما يبلغ التاسعة
والعشرين . وكان شديد الرغبة فى اللحاق بجماعة بيزا ، فهو يكتب
إليهما : « هل ، إذا جئت ، أستطيع التعرف بشللى ! ؟ .. وقبل
كل شئ آخر ، هل أستطيع معرفة بيرون ؟ .. أفى الإمكان
الاقتراب من دون جوان ؟ .. »

فيردان عليه : « سترى شللى حتما ، لأنه من أبسط الناس ..
أما بيرون ، فهذا أمر يتوقف كله عليك .. »

ولما جاء تريلاوفى ورأى شللى لم يكذب يصدق أن هذا الوجه
النسائى الناعم هو أيضاً وجه رجل نابغ نائر ، يقذفه الناس فى
انجلترا كأنه غول خفيف ، ويجرده كبير القضاة من حقوقه
الأبوية . . . كذلك أعجب شللى ، من جانبه ، بهذا الرأس
المتوحش الصلب ، وهذا الشارب الأسود ، وهذا الوجه الجميل
الذى يكاد يكون عربياً .. وبلغ من دهشتهم معاً أن لم يجدا

ما يقولانه . . وأرادت جين الخروج من هذا الصمت المخرج ،
فسألت شلى عن الكتاب الذى بيده ، فقال :

— إنه Magico Prodigiioso لكالدرون ، أترجم منه فقرات
فطلبت إليه أن يقرأ لهم ما ترجمه . . فارتاح شلى لتخلصه
من واجبات التعرف التى ترعجه ، وكأنها تدور فى عالم غير
حقيقى ، ففرح بالخلاص . . وطفق يترجم من الكتاب المفتوح
بأسلوب عذب ، وبعبارة جزلة ، بحيث لم يعد يخالج تريلاونى شك
فى نبوغه وعبقريته . . وانتهت القراءة

وفى اليوم التالى أخذ شلى معه تريلاونى لزيارة بيرون .
فرأى فيه تريلاونى ما يراه الناس جميعاً : كل مظاهر العبقرية . .
غير أن حديث الرجل العظيم قد راعه بتفاهته . .

وخرجوا فى نزهة طويلة . بدت فيها براعة بيرون وشلى
وتريلاونى جميعاً فى إطلاق النار على الهدف . وفى عودتهم تحدثوا
فى الأدب ، ورووا الشعر . . وقال بيرون لتريلاونى :

— أعترف بأنك كنت تتوقع أن تجد فى : « تيمون »
الحكيم الأثينى ، أو تيمورلنك الجبار التترى . . وأنتك دهشت
إذ وجدت رجل مجتمع ، لا يعرف الجد ، ويضحك من كل شيء
ثم ردد : « الدنيا حزمة من العلف ، والناس حمير تتجاذبها » ! . .

الملاح الذى جاء بيزا ليعجب بالرجلين العظيمين ، سرعان ما ألقى نفسه محل إعجابهما !

وكان شلى يستشير تريلاوفى فى اصطلاحات البحر ، ويرسم وإياه ، على رمال شاطئ الأرنو : المراكب وأشرعتها ، والخرط البحرية . ويقول : « لقد أخطأت استعدادى ، كان ينبغى لى أن أكون ملاحاً » . . فيرد عليه تريلاوفى بقوله : « رجل لا يدخن ، ولا يحلف ، لا يمكن أن يكون ملاحاً ! » . . وكان بيرون ، القرصان الخيالى ، يود لو تعلم من القرصان الحقيقى : عادات المهنة ، وتقاليدها . . ويبدل الجهد أمامه للظهور بمظهر المرأة والمجازفة !

ولما أدرك تريلاوفى تأثيره فى بيرون حاول الانتفاع بذلك ، ليخدم شلى . فانتهاز يوماً فرصة ركوبهما الخيل معاً ، وقال له : — أتعرف أنك تستطيع خيراً كثيراً لشلى ، بكلمة طيبة عنه ، فى أحد مؤلفاتك القادمة ، كما سبق لك أن فعلت مع كتاب دونه كفاية ؟

— لكل مهنة أسرارها ، يا تريلاوفى . فإذا نحن مدحنا كاتباً محبوباً فإنه يرد إلينا ما دفعناه من نفس العملة : يرد رأس

المال وأرباحه . أما شللى فهو استثمار سيئ ؟ ! .. من ذا الذى يقرأ شللى ؟ .. فضلاً عن أنه إذا عدل عن بحوثه المعمّاة ، فيما وراء الطبيعة ، والجدل فى الإلهيات ، فلن يعود بحاجة إلى ..

— ولكن لماذا يعامله أصحابك بلا اعتبار ؟ وهو لا يقل تربية عنهم ... ففيم نفورهم منه ؟

فابتسم بيرون ، وهز رأسه ، وهمس فى أذن تريلاوفى قائلاً :

— ليس شللى مسيحياً

— وأصدقاؤك ؟ وأنت ؟ .. تالله لو لقيت إبليس على

مائدتك لعاملته كواحد من أصحابك ! ..

فحدج به بيرون بنظرة قاسية ، ليرى هل لكلامه وملامه

خبيء ... ثم قال :

— كان إبليس من الملائكة ، قبل أن يأبى ويستكبر ! ...

وكان تريلاوفى يستعرض هذه الحال ، مع وليامز وزوجته ..

قال لهما يوماً :

— كأنى بيرون يغار من شللى ، فى حين أن « مورى » ،

ناشر كتب بيرون ، يستغيث بالبوليس لحماية داره من ازدحام الجماهير

فى كل مرة ينشر فيها نشيداً جديداً من « شايلد هارولد » .

بينما شللى المسكين لا يجد عشرة قراء .. بيرون ، له : الأصل

الرفيع ، والمال الطائل ، والجمال ، والمجد ، والحب !

فقال وليامز :

— أجل .. لكن بيرون هو عبد رقيق لأهوائه ، بينما شلى يعرض نفسه لتيار النهر الجارف ، ويأبى على التيار أن يحرفه ! .. وله فكر ، وله مبدأ . أما بيرون ، فيعز عليه أن يكون له من ذلك شيء لساعتين متواليتين .. وهو يعرف ذلك من نفسه ، ولا يغفره لها . وهذا ما تشعر به من لجة الظفر والشماتة التي يتحدث بها عن مصائب شلى ...

فقالت جين :

— إن بيرون طفل مدلل .. ولكن لا هو ولا شلى يعرف الناس .. شلى يحبهم أكثر مما ينبغي .. وبيرون لا يحبهم كفاء الحب
فقال تريلاوني :

— إن ما يروع في شلى : أن ليست له عند نفسه قيمة .. منذ أيام عبر لى عن أسفه لعدم معرفته العوم .. فقلت له : «جرب .. واستلق على ظهرك ، فإنك تعوم ..» .. فلم أكد أقولها حتى خلع ملابسه ، وقفز إلى الماء بلا تردد .. ولكنه هوى رأساً إلى أعماق النهر ، ولولا أنني أسرعرت بانتشاله لكان من المعرقين .. فتهددت جين .. لأنها لم تكن تجهل أن فكرة الانتحار تخامر شلى . وهو كثيراً ما يردد : « كل الذين أحبهم قد ماتوا غرقاً »
— ولكنه مع ذلك لا يبدو شقياً ..

— لا ، لأنه يعيش فى أحلامه . أما فى الحياة الحقيقية ،
فهل تظن أنه لا يألم من عجزه عن نشر آرائه ومؤلفاته على
الناس ؟ وهل تظن أنه لا يألم من تعاسة حياته الزوجية ؟ إن الموت
لا شك يبدو له كالقنطرة من كابوس مزعج . . . وعنده أن
« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . . »

— إنه يؤمن بحياة أخرى . . وكل الذين يصفونه بأنه ملحد
لا يعرفونه . . .

وبينا كان هؤلاء التلاميذ المريدون يتحدثون عن الأستاذ
الغائب ، كان هو يعمل فى غابة الصنوبر فى ضواحي بيزا . .
ينسى ، فى أحلامه ، ساعة العشاء . . بل ينسى ذات وجوده . .
ينظم الشعر فى تمجيد عروس روحه الجديدة : « جين » . . .
الأشجار كتبه . . لا يحب وهو ينظم أن يرى أو أن يسمع أحداً . .
وليس فى البيت الوحدة التى ينشدها ، فالأبواب تفتح وتغلق ،
والأجراس ترن ، فتهرب من رنينها أشباح الرؤى ، وعرائس الأحلام !

— ٣٤ —

لم يصدق بيرون وعده لشلى بإحضار ألاجرا إلى بيزا . .
وجاءت كلير من فلورنسا لتتنسم ريح بنتها ، وأوجست خيفة ،
لما علمت ببقائها فى دير مانيا كافاللو ، ذاك الذى صورته لها

أصحابها الطليان في صورة بشعة . وحملها عذاب الأمومة على فدية تكاد تكون علوية : فكتبت إلى بيرون أنها تقبل ألا ترى ألجرا مدى حياتها ، إذا هو رضى بإدخالها مدرسة إنجليزية محترمة ! . فلم يرد عليها !

ونصح بعض الأصدقاء كلير بخطف بنتها . ولكن شلى أشار عليها بالصبر . ثم سعى لدى بيرون . . غير أن بيرون لم يكده يسمع اسم كلير حتى هز كتفيه ضيقاً بكراها . فأخبره شلى بما سمعته كلير عن الدير وسوء حاله ! . ووصف له قلق كلير ومخاوفها

فارتسمت على وجه بيرون ابتسامة شيطانية من الرضى والارتياح . . . ويشت كلير يأساً مريراً ، فدعاها شلى ومارى لقضاء شهور الصيف على شاطئ البحر معهما ومع وليامز وزوجه . كان شلى يمني النفس بمتعة كبرى في هذا التصيف . وقد كلف ووليامز صاحبهما تريلافنى ببناء سفينة في جنوا ، بيد صديقه الكابتن روبرتس . وتسلفا اسماً لها : « دون جوان » ، تكريماً لبيرون ، الذى أوصى أيضاً بصنع يخت كبير ، اختار له اسم « بوليفار » . . وكان شلى ووليامز يمنيان النفس بسيادة البحر الأبيض المتوسط ! . .

وكان لا بد لتحقيق هذا المشروع من استئجار بيتين على

شاطئ البحر ، وقرر وليامز وزوجه أن يقوموا بجولة تفتيش نهائية ، وأخذوا معهما كليز ليسليها عن هوموها

وما كادوا يغادرون بيزا حتى كتب لورد بيرون إلى شللى أن وباء التيفوس قد تفشى فى رومانا ، ولم يكن لدى راهبات الدير وسائل للوقاية ، فأصيبت « ألجرا » بهذه الحمى ، على ما كان بها من سقم وضعف ، فماتت . . .

فذهب شللى ومارى لزيارته . وكان أشد شحوباً من ذى قبل ، وإن كان أيضاً أشد هدوءاً من مما كان عليه

وخشى شللى أن ترتكب كليز عملاً عنيفاً ، إذا علمت بمصيبتها وهى على مقربة من بيرون ، فقرر أن يكرم عنها الخبر ، إلى ما بعد السفر

ولم يجد وليامز على الشاطئ كله إلا مسكناً واحداً خالياً كان من قبل ديراً قديماً من أديرة اليسوعيين ، وكان يشرف على خليج « سيزيا » البديع ، وكانوا يطلقون عليه اسم : « كازامانى » . . . وكان شللى يريد إبعاد كليز ، مهما يكلفه ذلك ، فقرر استئجار البيت ، على أن تسكنه الأسرتان معاً . وكان الطابق الأرضى لا يسكن ، إذ تغمره مياه البحر عند ارتفاعها ، وكان الدور الوحيد فوق هذا مكوناً من قاعة كبيرة للطعام ، يؤدى أحد جوانبها إلى غرفة وليامز وزوجته ،

والجانب الآخر إلى غرفتين صغيرتين ، إحداهما لشلى ،
والأخرى لمارى وكليز . وسادهم الهم والغم فى الليلة الأولى .
وكانت الأمواج تموج تحتهم ، تناطح الصخور ، بصوت
يقبض الصدور . . . ولم يكونوا جميعاً ليفكروا إلا فى مصاب
كليز . . . وكانت هى تعزو كآبتهم إلى ضيقهم بوجودها ، فعرضت
عليهم عودتها إلى فلورنسا . فاحتجوا وعارضوا جميعاً . وهمست
جين فى أذن مارى بشىء ، ثم انسحبتا معاً إلى غرفة وليامز .
ولحق بهما شلى . وبعد هنيهة اتجهت كليز نحوهم ، فرأتهم فى ركن
يتحدثون باهتمام . . وقطعوا حديثهم حين لمحوها . . وعندئذ قالت :
— أألجرا ماتت ؟ ! . . .

وفى اليوم التالى كتبت خطاباً فظيماً إلى بيرون ، فأعاده
إلى شلى شاكياً من خشونتها ، وأبدى استعداداه للسماح لها بعمل
ما تراه لدفن ابنتهما . فأجابت ، بتهكم كئيب ، بأنها من الآن
فصاعداً ستترك الأمر كله له . . . وأن كل ما تسأله تذكاراً لابنتها
هو : خصلة شعر وصوره . فأظهر بيرون طاعة مدهشة ، وبعث
إليها بصورة صغيرة جميلة جداً ، وخصلة شعر شقراء . . وعادت
إلى فلورنسا ، لتعيش بين الغرباء عنها ، لا يعرفون شيئاً عن
حزنها ، فلا يجدونه لها . . .

- ٣٥ -

فتن شلى بيت البحر « كازامانى » .. أحب فيه :
الوحدة الموحشة ، والغابة التى من خلفه ، والجون الصخرى
الخشبي ، وقرى الصيادين ، وأكوأخهم الحقيرة ..

أما مارى ، فتخبطت : حيرة ، وشقوة ، وتأفناً .. فهى
حامل مرة أخرى ، تؤثر لو عاشت فى مدينة على مقربة من
طبيب . وضاعت ذرعاً بوجود جين وليامز .. وثارت بينهما
مشاجرات حمقاء ، بسبب الخدم والآنية والطهى ! .. وكان
شلى يسرف فى الحديث بحماسة ، عن كمال جين ، ويسرف
فى نظم « السريناد » من آيات الشعر ، عنها .. و .. لها ...

وكان يرد على شكاوى امرأته بلطفه المعهود . يدللها ،
ويداعبها ، برقة وحنو ، ويروح عنها ، وكان يعلم أن حالة الحمل
تفسر من ألوان تذرمرها وتمرمرها الكثير . فتحملها بعطف صبور .
وكان خاصة ما تعتبه عليه أن قواه العظيمة التى آتاه الله لا ينتفع
بها لنفسه ، بل يسخرها لمنفعة غيره .. كأن شخصه شخص
أجنبى عنه ! .. ولا يشمل برّه وتفانيه الأقربين من صحبه ،
بل الغرباء المجهولين ..

وكان يذهب كل شهر إلى ليفورن ويعود بكيس مملوء نقوداً ،

يفرغه على البلاط . ويقسم النقود بمجراف الفحم قسمين متساويين ، النصف لمارى ، لأجرة البيت وتديره . ثم يقسم النصف الثانى أيضاً قسمين متساويين ، أحدهما تأخذه مارى كذلك لمصروفاتها الشخصية ، والثانى لشللى . ولكن مارى تعلم المقصود من أنه « لشللى » . . فقد كان يذهب إلى أبيها جودوين ، ولأختها كلير ، ولأسرة هنت ! . . .

كتب شللى ، بعد موت ألجرا ، إلى الكابتن روبرتس ليححو عن المركب الذى يصنعه اسم « دون جوان » ويثبت بدله اسم : « آريل » . صار كل ما يذكره بيرون عنده مرذولاً . لذلك ما كان أشد دهشته وغضبه عند ما جاء المركب الصغير حاملاً على شراعه ، بحروف هائلة : « دون جوان » ! . . وكان ذلك من عمل بيرون ، إذ عرف بالتغيير المقصود ، فأمر الكابتن روبرتس بأن يضع ، رغم كل شيء ، طابعه الشيطاني على المركب الأفلاطوني . فلم يسترح شللى حتى محا عنه هذا العار ووضع عليه اسم : « آريل » . وكان لا بد له من طنين من الرصاص حتى يتزن . . فهو هكذا ، يظل قلقاً ، لا أمان له ، يعذب به النسيم ، ويلعب الهواء . .

وأراد شللى ووليامز صاحباً « آريل » أن يسيراه وحدهما مع غلام ملاح . وكان وليامز يدعى المعرفة بالبحر ، وكان شللى

جاءه لابه كالمراة ، وكاد خلال أول رحلة يسقط مرات عديدة من ظهر المركب ! ومع ذلك لم يكن أسعد منه ولا أهنأ يومئذ . ولما رآه تريلاوني يقود السفينة أخذ بذراع وليامز ، ونصحه بأن يبحث عن ملاح ماهر ، خبير بهذا الخليج . . .

وكان يصعب رسو « آريل » على رصيف « كازاماني » لشدة التيار . فصنعوا زورقاً خفيفاً ليصلوا به إليه . . فأصبح الزورق لعبة شلى الأثيرة عنده : يهيم بإطلاق نفسه ، وتورجحه الأمواج ، في هذه المحارة الخفيفة . .

وكان يجب الإقلاع مع صحبه هؤلاء في « آريل » في ضوء القمر : عند قدميه ماري جالسة ، رأسها إلى ركبتيه ، تتذكر : كيف أنها ، هكذا ، منذ عشر سنوات ، قد عبرت وإياه المانش الهائج في جو عاصف . . . ما أكثر ما مرّ من حوادث في هذه السنوات العشر ! . . وما أكثر ما تمخضت الحياة الخائنة بخدع ، وكشفت عن أشياء لم يكن كلاهما عندئذ يتصورها ! . . وفي آخر المركب : جين ، جالسة تغنى لحناً هندياً ، وتوقعه على القيثارة . . بينا هو يتأمل : سماء يونيه الصافية ، والسحب البيضاء تتفنّع دلالة بضوء القمر الساطع . . لم يكن يفكر . . كان يحس روحه تتحلل وتذوب تحت سنا النور النقي ، في عطور الليل الدافئة . . إن شخصه ، الذي قد

من لحم ودم ، قد تلاشى في انجذاب روجى الميذد ، فلم يعد
إلا أثيراً ، يـمـوج في الفضاء بخفة . . ونسجت له عطور السماء ،
وأضواء القمر ، وغناء جين ، شباكاً خفية ، يتأرجح فيها
كالطفل في مهده ، مصغياً إلى أنغام موسيقى باطنية ربانية . .

— ٣٦ —

كان شلى يرغب ، من وقت طويل ، في دعوة صديقه
الناقد هنت وأهله إلى إيطاليا ، لأن الدائنين وأعداءه السياسيين
قد جعلوا عيشهم في انجلترا مرّاً . وحصل من بيرون على وعد
بأن يؤسس مع هنت جريدة تختص بحق نشر جميع أعمال بيرون .
وهو امتياز كاف لنجاح الجريدة وذيوعها ، ويهيء لهنت ثروة
لا يحلم بها . وذهب بيرون إلى أبعد من ذلك في السخاء فرضى
بأن ينزل لهنت عن الدور الأرضى في قصره بمدينة بيزا . . . وتعهد
شلى بأن يؤثثه لهم . . .

وبعد متاعب ومصاعب وصلت قافلة هنت إلى ليثورن في
أواخر يونيه ١٨٢٢ . وكان تريلاونى ينتظرهم على اليخت «بوليفار» .
ووصل شلى ووليامز على «آريل» مندفعاً إلى الميناء ببراعة
فائقة . وبعد مظاهرات الفرح باللقاء اتجهت القافلة ، بقيادة
شلى ، نحو بيزا . . بينا ظل وليامز في ليثورن في انتظار

صديقه شلى ليعودا فى المركب معاً

وفى صباح اليوم الثامن من يوليه وافاه شلى ومعه تريلاونى ،
وقصد البنك ، واشترى مؤونة لبيتهم « كازامانى » . ثم اتجه
الأصدقاء الثلاثة صوب الميناء . وكان تريلاونى يريد أن يصحب
المركب « آريل » باليخت « بوليفار » . وأخذت السماء تبرد
شيئاً فشيئاً ، وتقلب بالسحب ، وهبت ريح خفيفة . . وتنبأ
الكابتن روبرتس بقرب هبوب العاصفة . فأكد وليامز ، وكان
يتعجل الرحيل ، أنهم سيصلون البيت فى سبع ساعات

وعند الظهر كان شلى ووليامز وبحارهما الفتى على ظهر
« آريل » ، وتريلاونى على ظهر « بوليفار » يعد عدته أيضاً
للرحيل . ودنا منهم مركب حرس الميناء ، للتحقق من أوراقهم ،
فسمح لشلى ومركبه بالإبحار . أما تريلاونى فلم تكن لديه
شهادة صحية ، وحاول التلصص ، فهده الضابط بالحجر الصحى
خمسة عشر يوماً . فعرض على صاحبيه أن يذهب ليتمم أوراقه
 ويعود سريعاً ، ولكن وليامز كان لا يستقر على حال من القلق . ولم
يكن لديهما وقت يضيعانه ، فقد كانت الساعة الثانية ،

وكان الهواء قليلاً ، فإذا جهدوا وصلوا عند دخول الليل
وأقلع « آريل » من الميناء ، بين الثانية والثالثة ، فى نفس
الوقت الذى أقلعت فيه « فلوكتان » إيطاليتان . . وألقى

تريلاوى « هلبه » غاضباً ، وطوى شراعه ، وظل يتابع ، بمنظار معظم ، مركب صاحبيه . فقال له ملاحه ايلحنوى :

— كان عليهم أن يقلعوا هذا الصباح ، فى الساعة الثالثة أو الرابعة ... بدلا من الثالثة مساء .. وهم يلزمون الشاطئ كثيراً ، فسوف يتمكن التيار منهم هناك !

— إن هواء الأرض لا يلبث أن يساعدهم

— ربما زاد الهواء عما يعوزهم منه .. وهذه القلاع العدة على سفينة بلا سطح « دك » ولا ملاح هى الجئون يدور بها ! . انظر إلى هذه الخطوط السوداء هناك ، والخرق القذرة العابرة فوقها ، وذاك الدخان على الماء ... إن الشيطان يدبر أمراً ... كذلك ، من وراء رصيف الميناء ، كان الكابتن روبرتس يرقب « آريل » . فلما غاب عن بصره صعد إلى الفنار ، فرأى العاصفة توشك أن تهب وتتجه نحو المركب الصغير .. ثم لم تلبث السحب المدهمة أن حجبته تماماً عن الأنظار !

وكان لجو الميناء وقْدَة ، وقد انقلب خانقاً ، وصار الهواء شواظاً من نار . وساد صمت ثقيل ، يقبض الصدور ، وينقض الظهور . ونزل تريلاوى إلى كابينه ، ونام إعياء . وبعد لحظات استيقظ على دوى السلاسل . فقد كان البحارة يلقون هلباً آخر . وعمت الميناء كله حركة المهرج والمرج التى

تسبق هبوب العاصفة . وطووا القلاع ، وخفضوا الساريات ،
وأخرجوا الحبال الضخمة ، ولم يبق دلب إلا تشبث بالشاطئ ،
يعض عليه بأنياه الفولاذية . وساد الظلام التام . صار البحر
كتلة واحدة ، صماء قاتمة كالرصاص . الرياح تنفخ فيه ،
والمطر المدرار يهطل من فوقه ، ولا ينفذ إليه . ولاذت زوارق
الصيد بالشاطئ ، مسرعة ، متزاحمة ، لا تلوى على شيء .
وكان يُسمع : صفير ، ونداءات ، وأوامر ، وصرخات . .
ثم تغلب على ضجة البشر ، فجأة ، هزيم الرعد ، مزق الحجب ،
وزعزع الكائنات . .

وعند ما صحا الجو ، بعد بضع ساعات ، وراح تريلاوني
وروبرتس يمسحان الخليج طويلاً بالمنظار المعظم ، في قلق ،
أملًا في اكتشاف مركب شللى ، لم يجدا لأى مركب أثراً . . .

ودت مارى لو دفن شللى قرب ولده فى مقبرة روما ،
تلك التى رآها جميلة جداً . لكن اللوائح الصحية لا تسمح بنقل
جثث الغرقى . فاقترح تريلاوني أن تحرق الجثتان على الشاطئ ،
على طريقة الإغريق القدماء . ولما تحدد يوم لهذه الشعائر أحاط
به بيرون وهنت . وقدمت السلطات التوسكانية شردمة من الجند

مزودين بالفؤوس والمعاول ، لكي ينهشوا في الرمل على جثتى شلى ووليامز ، وكانتا قد طمرتاً في الرمل بعد أن دفع بهما البحر ، لحفظهما من المد والجزر . .

ونبش أولاً على جثمان وليامز . ووقف أصحابه على الرمل المحرق ينظرون إلى الجنود يعملون ، متطلعين ، بمزيج من الحزن والرعب ، إلى ظهور الرفات البشرية . . وظهر أولاً طرف منديل من الحرير الأسود ، ثم ياقة ، ثم الجسد في حالة من الانحلال ، بحيث كانت الأعضاء تتساقط بمجرد ما يلمسها الجند . . .

فنظر بيرون إلى تلك الكتلة المختلطة من اللحم والعظم ، وقال : — أهذه إذن رفات إنسان؟! .. كأني بها هيكل حيوان ! وبلغ به التأثير ، فحاول أن يخفيه ، إذ عده غير جدير بالرجال . . وفي اللحظة التي رفع فيها الجنود الجمجمة قال : « قفوا لحظة ! .. حتى أرى الفكّ . . » ثم أضاف : « إني أستطيع أن أعرف من الأسنان كل من خاطبته يوماً . . إني أنظر دائماً إلى الفم ، فهو يقول ما تحاول أن تخفيه العيون . . » وأعدت كومة كبيرة من حطب الصنوبر ، أشعل فيها تريلاوى النار . . فلم تلبث أن تأججت ، وهى تلتهم العظم واللحم ، وتلظّت بسرعة حامية ، حتى تراجع المشاهدون . .

واستعرت النار بشراهة وحشية ، ثم تألقت صافية ، لامعة ، فضية
ولما خبا قليلاً أوارها اقترب منها بيرون وهنّت ، وألقيا على
هذا الفراش الجنائزيّ المتوقّد : لبناً ، ومِلْحاً ، وخمراً ..
وقال بيرون بغتة :

— هلموا .. ولنجرب قوانا مع هذه المياه التي أغرقت
صديقينا .. ما مدى بعد مركبهما عن الشاطئ عندما غرق ؟ ..
وقفز إلى الماء عائماً .. وتبعه تريلاوني وهنت ..
ولما التفتوا وراهم كانت محرقة الموت على الشاطئ لم تعد
إلا ذبالة تضىء وتخبو ...

وفى اليوم التالى جاء دور شلى ، الذى كان مطموراً
قرب فيارجيو ، بين البحر وغابة الصنوبر
وكان الجو صحواً جميلاً : رمال صفراء ، ومياه زرقاء ،
تؤلف ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، لوحة رائعة . ومن وراء
الأشجار ، تبدو قمم جبال الأبنين المتوجة بالثلوج البيضاء ، فى
السماء الموشاة بالسحب المرمرية الهاربة ، التى طالما أعجب بها شلى
واحتشد أطفال البلد لدى هذا المشهد النادر .. ولكنهم لزموا
الصمت خاشعين .. وكان بيرون نفسه قد توزّعت الفِكَر والغُوم :
— آه ! ... أيتها الإرادة الحديد ! .. أهذا إذن كل ما
بقي من شجاعتك ، ومضائك ، وعزيمتك ؟ ! .. لقد تحدّيت

الآلهة . . . وها أنت ذى ! . . لا عاصم اليوم من أمر الله ! . .
 وظل الجنود يحفرون نحو ساعة ، ولا يجدون الجثة . ثم
 فجأة ، تُسمع صوت ضربة جامدة جوفاء ، أُنذرتهم بأن فأساً قد
 ضربت جمجمة الرأس . . . فارتجف بيرون ! . . ومرت بذهنه
 كالبرق صورة شلى ، يوم تلك العاصفة ، على بحيرة جنيف ،
 عندما كانا معاً ، وقد شبك شلى ذراعيه على صدره ، ببسالة
 وعجز معاً ! . . فبدأ لبيرون أن تينك الذراعين كانتا رمزاً
 صادقاً لهذه الحياة الجميلة :

— لشد ما كان الناس قساة غلاة في الحكم عليه ظالماً
 وعدواناً . . فهو خير الرجال بلا استثناء ، وأقل من عرفت منهم
 أثرة وأناية . . . ثم أى جنتلمان هو ! . . الرجل الكامل . . لم
 يعبر قط صالوناً رجل أكمل منه ! . .

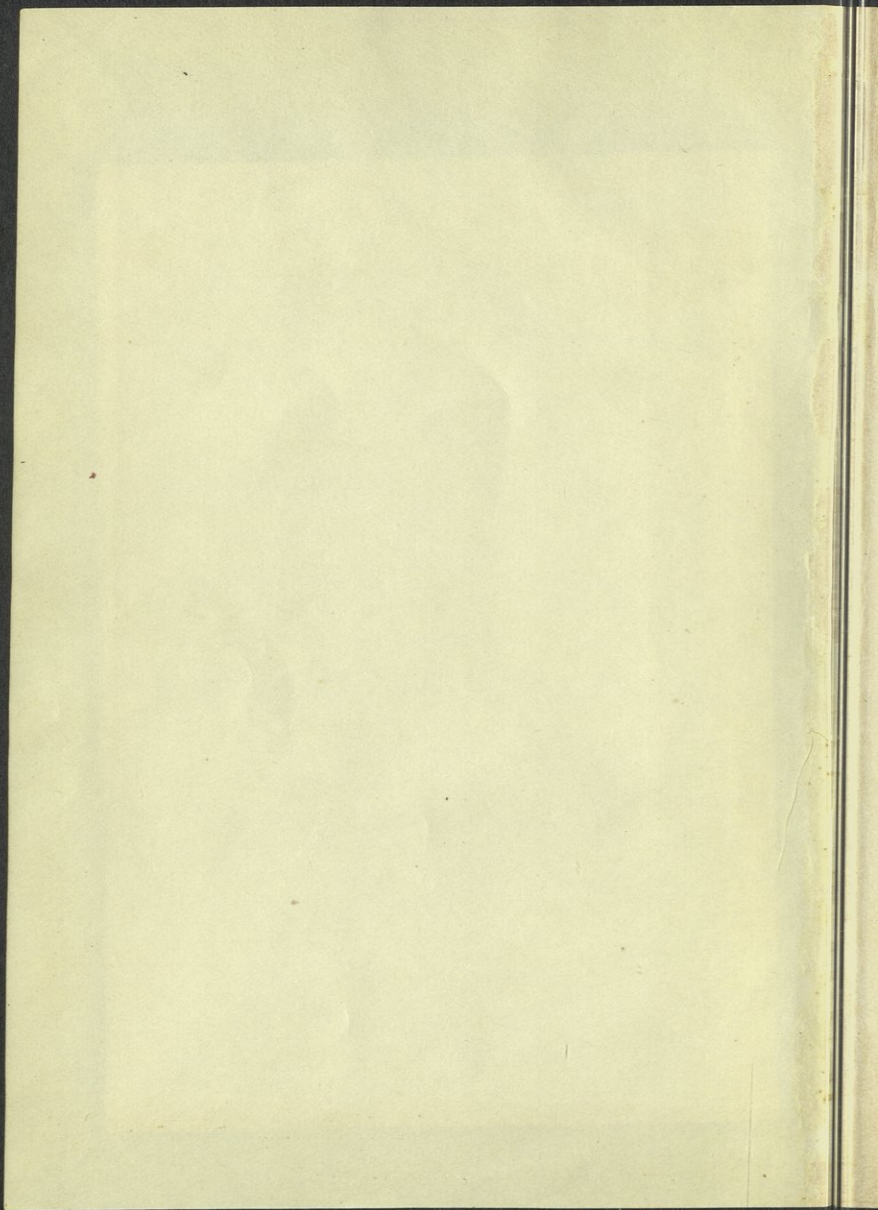
كانت الجثة مغطاة بالجير الذى لم يدعها إلا فحمًا . فنُسِرَ
 من جديد بنحور اللبان والزيت والملح على اللهب ، وصُبَّ النبيذ
 مدراراً على شلى ميتاً ، أكثر مما تعجرع منه حياً . .

وضاق الجو ، وتكهرب بالحرارة الهائلة . . وبعد ثلاث
 ساعات كان القلب ، وهو على حجم كبير غير عادى ، لم
 يذب بعد . . فانتشله تريلاوى من الأتون المشتعل ، مجازفاً
 بإحراق يده . . وكانت الجمجمة التى شجَّها معول جندى قد

انفتحت ، وظل المخ يغلى فيها طويلاً . . كما لو كان فى بوتقة !
 فلم يعد بيرون يستطيع احتمال هذا المشهد . ففعل ما فعل
 بالأمس : ألقى بنفسه متجرداً إلى البحر ، وسبح حتى يخته
 « بوليفار » ، الذى كان راسياً فى الجون
 وجمع تريلاوى بقايا العظام المنتشرة ورماد الرفات ،
 ووضعها فى صندوق كان قد جاء به ، مصنوع من خشب
 البلوط ، ومبطن بقطيفة سوداء . .

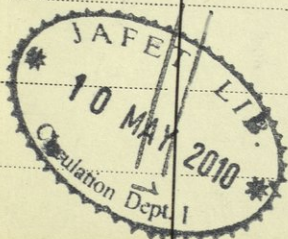
* * *

— أما غلمان القرية ، الذين كانوا يحدقون بكل عيونهم
 ويعجبون ، فقد روى بعضهم لبعض :
 — إن هذه العظام النخرة ، إذا ما عادت إلى وطنها ، عاد
 الميت فولد من رماده ، وهبّ من رقاده ! . .



DATE DUE

5 JUL 1972



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031890

828:S545YmuA

828
S545YmuA

828
S545YmuA
C.I